

العدد الحادي عشر / السنة الثالثة / (أبريل - يونيو) ٢٠٠٨

محمد ﷺ

محفور على القلب اسمُكَ،

روحاً هوَّاماً في أفقك أدور، وفؤادكَ أروم

ليتني به أَفنى، وبه أذوب

إن لم أكن بالوفاء جديراً فشفيعي أني إليك نسيب

* * *



المستقبل

ا"التجديد" هاجس ملح من هواجس الأستاذ "فتح الله كولن" الدائم، ومن همومه الفكرية التي تؤرقه وتشغل فكره. فكتاباته في معظمها تكاد تكون مكرسة لعملية التجديد كما يراه ويدعو إليه. وهو يعزو تأخر المسلمين الحضاري والفكري إلى ما أصاب الفكر من شيخوخة، وإلى ما أصاب القلب من وَهَن، والروحَ من ضعف وهزال. وأزعم أن لسان حاله يقول: أعطني قلباً وذهناً ألمعياً وروحاً نورانياً أفتح لك مغاليق عالَمي الكون والإنسان، وأخرق بك أسرار الأرض والسماء، وأجعلك موضع نظر العالم واحترامه وتقديره، وعلى قدر ما يتركه الذهن المسهد من أخاديد على الجبين وهو يذرع جمجمة المسلم جيئة وذهابا يكون ارتقاؤه في سلم التجديد. أما إذا كان القلب خرباً والذهن عاطلا والروح مظلما فإن "اليد" سرعان ما تُجَنّ وتنبت لها مخالب وأنيابا لتخبط خبط عشواء فتبطش بنفسها وتبطش بالآخرين دون رادع من فكر أو من ضمير.

وكما يشير الأستاذ، لابد للمسلم الذي يسعى لتجديد نفسه من أن يستبقي منافذ الإدراك عنده مشرعة دائما لكي تستقبل هواء التجديد العصري وتستوعب مقاصده وأغراضه من دون أن يمس ذلك مبادئه وقيمه الروحية؛ وعليه -كذلك- أن يربي في نفسه عشق البحث والتنقيب وزيادة المعرفة بالكون والإنسان وبأسرارهما الإلهية التي هي لباب الحقائق جميعا في هذا العالم، وما لم يرتفع رأس المسلم مثقلا بالمعرفة حتى يلامس سماء العظمة، فإنه يبقى دون بلوغ مرتبة الإنسان الحضاري المطلوب.

هذه هي المحاور التي يدور عليها مقال الأستاذ فتح الله كولن "الإنسان الجديد" في صدر هذا العدد من "حراء". فمن أخطر أنواع البشر على الجنس البشري برمته، هم أولئك الذين تفرغ أذهانهم من أية فكرة سامية، وتقفر قلوبهم من نور الإيمان، وتختلج أرواحهم برعب خرافي يحول بينها وبين نشدان حقائق الأمور العليا والتعلق بها والمجاهدة من أجلها.

ومن هنا كان من اهتمامات "حراء" ومن نهجها الدائم الأخذ بيد كل ضارب في معارج الرقي الحضاري والفكري، وكل ضارب بسهم وافر في حقول العلوم الإنسانية والكونية الإيمانية. ومن يتابع "حراء" يخلص إلى نتيجة مفادها أن هذه المجلة لا تفتأ تنشر على صفحاتها بشكل متوازن من المقالات والأبحاث ما يغطي احتياجات المسلم المعاصر من ثقافات ومعارف -إنسانية وكونية علمية وإيمانية تجديدية- علما بأنها لم تغفل يوما الوجدانيات من شعر وأدب وقصة، والله من وراء القصد.■



العدد الحادي العاشر - السنة الثالثة (أبريل - يونيو) ٢٠٠٨

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير المسؤول
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة - الحي السابع - م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال : +20165523088
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

نوع النشر
مجلة دورية دولية
Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة
Çağlayan Matbaası
İzmir- Türkiye
Tel: +90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦



المحتويات

عناوين الاتصال:

EGYPT
Daralnile
7 Albaramka Street . From Tayaran Street. Nasr City, Cairo – Egypt
Tel: +20 16 55 230 88
sukru@hiramagazine.com

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution
الوطنية للتوزيع
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
saudia@hiramagazine.com

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution, d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300
Casablanca / Morocco
Tel: +212 22 24 92 00
morocco@hiramagazine.com

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
yemen@hiramagazine.com

USA
The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset, 08873 New Jersey, USA
Tel:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211
usa@hiramagazine.com

ALGERIA
algeria@hiramagazine.com

SUDAN
Tel:00249918248388
sudan@hiramagazine.com

JORDAN
jordan@hiramagazine.com

SYRIA
syria@hiramagazine.com



الإنسان الجديد

فتح الله گولن

نحن اليوم على مشارف عهد جديد في مسيرة تاريخ الإنسانية، متفتح على تجليات العناية الربانية. لقد كان القرن الثامن عشر، بالنسبة لعالمنا، قرن التقليد الأعمى والمبتعدين عن جوهرهم وكيانهم؛ وكان القرن التاسع عشر، قرن الذين انجرفوا خلف شتى أنواع الفانتازيات واصطدموا بماضيهم ومقوماتهم التاريخية؛ والقرن العشرون، كان قرن المغتربين عن أنفسهم كليا والمنكرين لذواتهم وهويتهم، قرن الذين ظلوا يُنقّبون عن مَن يرشدهم وينير لهم الطريق في عالم غير عالمهم. ولكن جميع الأمارات والعلامات التي تلوح في الأفقِ تبشر بأن القرن الواحد والعشرين، سيكون قرن الإيمان والمؤمنين، وعصر انبعاثنا ونهضتنا من جديد.

أجل، من بين هؤلاء الذين هجروا العقل والتفكير مندفعين خلف "الموضات" الفكرية دون أي تمحيص أو تدقيق، ومن ضمن الجماهير الفاقدة لوَعيها، الهائمة على وجهها، سيولد إنسان جديد كل الجدة، إنسان يفكر ويحاسب، ويوازن ويدقق، ويعتمد على التجربة قدر اعتماده على العقل، ويثق ويؤمن بالإلهام والوجدان قدر اهتمامه بالعقل والتجربة؛ إنسان يحاول دوما بروحه وبدنه الوصولَ إلى الأفضل، ويرغب في الوصول إلى الكمال والتكامل في كل شيء. إنسان يسمو بالموازنة بين الدنيا والآخرة، ويوفق إلى الجمع بين عقله وقلبه فيصبح نموذجا جديدا لا مثيل له. ولا شك أن ولادة هذا الإنسان الجديد ليس بالأمر السهل، فلا بد من آلام مخاض وتوجّع وأنين. ولكن حين يئين الأوان فسوف

تتحقق هذه الولادة المباركة حتما، ويظهر هذا الجيل الذهبي بيننا فجأة -كالخضر عليه السلام- بوجهه النوراني الذي يشع كالبدر. فكما تنهمر الرحمة الإلهية من خلال الغيوم المتراكم بعضها فوق بعض، وكما تتفجر المياه من ينابيع الأرض، وتتفتح زهرات الثلج وتنتشر في مواقع ذوَبان الثلج والجليد، وكما تتلألأ قطرات الندى وتتربع على الأوراق، سيسطع نور هذا الإنسان في سماء البشرية البائسة الحزينة لا محالة، ربما اليوم أو غدا أو بعد غد.

الإنسان الجديد بطل يتمتع بشخصية قوية استطاعت أن تسمو على المؤثرات الخارجية بشتى أنواعها، وعزمت على الصمود والاكتفاء الذاتي. فكما أن الشرق والغرب لن يستطيعا أسره ووضع السلاسل في قدميه، فكذلك لن تستطيع الأفكار والفلسفات التي تتناقض مع هويته المعنوية وجذوره أن تغير وجهته وتضله في ظلامها عن طريقه، بل ولن تستطيع أن تزحزحه عن مكانه قيد أنملة أو أقل من ذلك. أجل، الإنسان الجديد رجل حر في تفكيره، حر في تصوره، حر في إرادته، وحريته هذه مرتبطة بقدر عبوديته لله سبحانه وتعالى. ثم إن الإنسان الجديد لا يتشبه بالآخرين ولا يتمثل بهم، بل يحاول جاهدا أن يتزيّى بهويته الذاتية ويتزيّن بمقوماته التاريخية.

الإنسان الجديد ممتلئ بالفكر، ملتهب بعشق البحث، مفعم بالإيمان، قابل للوجدانيات، متشبع بنشوة الروحانية ومعانيها... إنسان يبدي كفاءة من نوع آخر في سبيل بناء عالمه، مستفيدا من إمكانيات عصره إلى أقصى حد، متمسكا بمبادئه وقيمه الذاتية.

الإنسان الجديد، هو إنسان يحمل في قلبه إيمان أجداده الأجلاّء، ويفكر تفكير أعلام حضارته العظماء، ويمتلئ مثلهم رغبة في إسماع صوته وإظهار قوة رسالته للبشرية جمعاء... ومثلهم كذلك يسطع نورا في كبد الظلام فيضيء الأرجاء برمتها... يؤدي واجبه هذا بصدق ووفاء غير محدود، معتصما بالحق متمسكا بالرسالة السماوية في كل لحظة.. يتألم ويئن، يموت ويحيا من أجل إحياء الحق وإنهاضه. فهو دائما على أهبة الاستعداد للتخلي عن المال والولد والغالي والنفيس، ولن تكون سعادته الشخصية بغيته أو همه أبدا، بل همه الوحيد ألا يضيع بذرة واحدة من البذور الصالحة التي منحها له الحق تعالى، بل ينثرها كلها بدقة فائقة على سفوح العناية الربانية من أجل مستقبل الأمة القريب والبعيد... ثم يرتقب مكابدا آلام مخاض جديد، يتلوى ويتأوه ويئن ويقلق، ويبتهل إلى المولى جل جلاله في أمل، يموت ويحيا في اليوم ألف مرة ومرة. فالسير في سبيل الحق والفناء فيه غايته الوحيدة في الحياة، وانفلات هذه الغاية من بين يديه -في نظره- خسارة لا تعوض أبدا.

الإنسان الجديد يستخدم جميع وسائل الاتصالات الحديثة؛ كتباً وجرائد ومجلات، وإذاعة وتلفازاً ومنشورات للولوج إلى القلوب والنفوذ إلى العقول والدخول إلى الأرواح، ويثبت جدارته من خلالها مرة أخرى، بل ويسترد مكانته المسلوبة في التوازن العالمي من جديد.

الإنسان الجديد
يملك طاقة بناءة وروحا مؤسِّسا، يبتعد عن النمطية بشدة، يعرف كيف يجدد نفسه مع الحفاظ على جوهره. ويعرف كيف يروّض الأحداث فتأتي لأمره طائعة خاضعة. يسبق عصره فيسير أمامه قدُما على الدوام بهمّة تتجاوز حدود إرادته، وشوق عارم وحب عميق واعتماد بالله عظيم.

الإنسان الجديد، هو إنسان عميق من حيث جذوره الروحية، متعدد من حيث ما يملكه من كفاءات صالحة للحياة التي يعيش في أحضانها. إنه صاحب القول الفصل في كل الميادين بدءا من العلم إلى الفن ومن التكنولوجيا إلى الميتافيزيقيا، وصاحب خبرة ومراس في كل ما يخص الإنسان والحياة. أجل، إنه عاشق لا ينطفئ ظمؤه إلى العلوم مهما نهل، مولع بالمعرفة ولعاً لا يفتأ يتجدد كل حين، عميق بأبعاده اللدنية التي تعجز العقول عن تصورها.. وهو بهذه الخصال كلها يسير جنبا إلى جنب مع سعداء عصر السعادة وينافس الروحانيين في سباق معراجي جديد كل يوم.

الإنسان الجديد متشبع بحب الوجود كله، حارس للقيم الإنسانية وراصد لها. فهو من جهة يحدد موقعه وينشئ ذاته على أساس الأخلاق والفضيلة التي تجعل من الإنسان أنسانا مثاليا، ومن جهة أخرى يحتضن الوجود كله بقلبه الواسع وشفقته الشاملة، ويسعى دائما من أجل إسعاد الآخرين. وفي الوقت

الذي يقوم بوضع المعايير لنفسه، يقوم أيضا بوضع مقاييس حول كيفية التعامل مع الأشياء والناس الذين كتب عليه العيش معهم؛ وإذا ما سنحت له الفرصة سعى جاهدا لتحقيق معاييره وخططه التي وضعها. فهو لا يتوانى أبدا عن متابعة كل ما هو إيجابي فيما حوله وعن الحفاظ عليه، وحث الآخرين على ذلك... وهو يشن حربا على كافة المساوئ، وهو كالقوس المشدود، مستعد دائما لإزالة هذه المساوئ واقتلاعها من تربة المجتمع الذي يعيش فيه. وهو مؤمن ذاق حلاوة الإيمان، ومن ثم يدعو الجميع إلى رحاب الإيمان. العبادة -عنده- جمال مطلق وهو لسانها... يقرأ الكتب التي ينبغي أن تُقرأ، ويوصيها للآخرين؛ ولا يبرح يشجع الصحف والمجــلات التي توقر جذورنا الروحية وتبجل أصولنا المعنوية... يتنقل من شارع إلى شــارع آخر حاملا كل ما يحتاج إليه أبناء وطنه وأمته، ومن ثم فهو رمز للمسؤولية السامية.

الإنســان الجديد يملك طاقة بناءة وروحا مؤسِّسا، يبتعد عن النمطية بشدة، يعرف كيف يجدد نفسه مع الحفاظ على جوهره، ويعرف كيف يروّض الأحداث فتأتي لأمره طائعة خاضعة. يسبق عصره فيســير أمام التاريخ قدُما على الدوام بهمّة تتجاوز حدود إرادته، وشــوق عارم وحب عميق واعتماد بالله عظيم. إنه مثال للتوازن التام بين الأخذ بالأسباب والاستسلام لرب الأسباب.. مَن رآه دون معرفة به، ظنه عابدا للأســباب أو معطّلا لها؛ بينما الحقيقة ليست هذه ولا تلك.. لأن الإنسان الجديد، بطل التوازن بكل ما تعنيه كلمة التوازن؛ فهو يرى أن الأخذ بالأســباب من واجبه، والتسليم للحق تعالى من صميم إيمانه.

الإنســان الجديد فاتح ومكتشــف معا، يغوص كل يوم في أعماق أعماق ذاته، ويطلق شــراعه على الفضاء الشاسع دوما فينصــب رايته على أبراج جديــدة كل حين، ويلح على طرق الأبواب المكنونة وفتحها في الآفاق والأنفُس. وكلما بلغ بفضل إيمانه وعرفانه إلى أسرارِ ما وراء الوراء ازداد شوقا ورغبة، وظل يتنقــل بخِبائه من ربع إلى ربع آخــر في عوالم وراء وراء الأبعاد. وأخيرا يأتي يــوم تخاطبه الأرض بما تكــتزه في باطنها، وتنفلق البحار بعصاه الســحرية لتنبثق اللآلئ مــن أعماقها، وتتفتح له أبواب الســماء على مصاريعها وتستقبله بالتأهيل والترحاب.■

(*) الترجمة عن التركية: هيئة تحرير المجلة.



أنت في أعماقنا

في دواخلنا مسكنك،
وفي الشغاف من قلوبنا محلك،
أَومِئْ فإيماؤك أمر،
وأومض فإيماضك عيد وسرور..
أنت ربيع كل فصولنا،
كم تنشقنا عبيرك،
وتلذذنا بشذى أنفاسك..
في المخيلة منا تحيا صورتك،
وعلى ذكراك نصبح ونمسي...

* * *

(*) الورد يرمز إلى الرسول ﷺ في الأدبيات التركية.

هِـزّة في الأكوان سـرتْ، والأرض بمولـده ﷺ انتشـتْ، ومـن رحيـق روحـه ارتـوتْ... فـإذا العالـم نشـيد، وأُغـرودة عشـق مديـد، والسـماوات أبـواب مفتّحـة، وأضـواء مشـتعلة، تنـث أنـداء رأفـة، وتسـحُّ شـآبيب رحمـة...

***



دروس من السيرة النبوية والسنة الشريفة

أ.د. علي جمعة*

في قراءتنا للسيرة والسـنة يجب علينا أن نلتمس الأحداث الحياتية، وأن نأخذ منها المنهج الضابط لمراد النـبي المصطفـى ﷺ، ويتأتى هـذا بتتبع القضايـا، وما ورد فيها من حيثيـات تمكننا من الغوص وراءها واسـتخراج منهجها، والقيام بالتحليل المناسب في هذا الشأن.

صلح الحديبية

ونضرب هنا مثالا ليكون نبراسـا لغيره، وهو ما حدث في صلح الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ هـ؛ ففي البخاري حديث طويل عمّا حدث في الحديبية بين رسول الله ﷺ ورسولَي قريش عروة بن مسعود وسهيل بن عمرو، إلى أن وقّعوا اتفاق الحديبية، وبالإضافة إلى ما يمكن أن نسـتنبطه من نص هذا الحديث الطويل من أدب التفـاوض، إلا أننا نريد أن نقرأه قراءة أخرى. وهو أن رسـول الله ﷺ في المدينة شـعر بخطر داهم من الشمال يكمن في خيبر، حيث اليهود يتربصون به، وخطر داهم من جهة الجنوب يكمن في مشركي مكة، وأن هناك اتفاقا سرّيا بين اليهود والمشركين في الهجوم على المدينة مرة واحدة من الشـمال والجنوب حتى يعجز المسـلمون عن الدفاع عن أنفسـهم، ويجتاح هؤلاء المدينة مرة واحدة، فتنتهي الدعوة وينتهي الأمر.

والحنكة السياسية هنا تكمن في العمل على فك هذه الكمّاشة -إن صحّ التعبير- فرأينا النبي ﷺ بتفاوض الحديبية قد حيّد طرف مكة، وخرج من المدينة بعد ذلك إلى خيبر من أجل فك الطرف الآخر من هذه الكماشة العسكرية، فقد كانت خيبر -وهي لفظ عبري على الأغلب- تعني القلعة، وكان اليهود قد شيّدوا قلاعا عديـدة ومُحْكمة يوجد آثار بعضها حتى الآن. وحين أُجلي بنو النضـير من المدينة أقاموا بخيبر، وأخذوا يثيرون العرب جميعا ضد الإسلام، بل إن غزوة الأحزاب كانت أول مظهر لهذا الإثارة.

وزادت مـن خطورة خيبر مجاورة قبيلة غطفان لها، وهي من أكبر قبائل العرب نفوذا وسطوة، ولقد ورد أن أبا رافع سلام بن أبي الحقيق ذهب إلى تلك القبيلة وما حولها من القبائل للتحريض

على مناهضة الإســـلام، بل تعدّى الأمـــر إلى إعداد جيش جرار للهجوم على المدينة. وعلى ذلك فإن خيبر تعد أول غزوة لم تكن دفاعا فقط كما كانت كل الغزوات، بل إنها ضربة وقائية، وهي نوع من أنواع الدفاع إلا أنه دفاع استباقي، وليس هجوما مجردا من أجل الأرض أو من أجل الاحتلال.

عندما فتحت خيبر وانكسرت تلك الخطورة الشمالية، وحدث أن أحلّت مكة بعهدها ونقضته -كما هو معلوم في الســيرة- تم فتح مكة في رمضان سنة ٨ هـــ، فانتهت بذلك الخطورةُ الجنوبية.

إن هذا الدرس وهذا التحليل يعلمنا كيفية التفاوض، وتحديد الأهداف الإستراتيجية، وترتيب الأولويات، وأنّ صلح الحديبية لم يكن من قبيل قبول الدنية في ديننا -كما خطر على ذهن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه- و لم يكن من قبيل المهادنة، ولا القبول بالشـــروط المجحفة، بقدر ما كان طريقة واقعية للحماية والاستمرار والدوام.

الاهتمام بالأطفال وملاطفتهم

وإذا نظرنا إلى مثال آخر نقرأ فيه السيرة النبوية المطهرة، ونجمع فيه أطراف قضية بعينها من أجل أن نســتخرج موقف النبي ﷺ منها حتى نتأسى بهديه الشريف، فليكن مثالنا الثاني هو عن "الطفولة" وكيفيـــة تعامل النبي ﷺ معها؛ حتى إننـــا إذا تأملنا فيما ورد في هذا الشأن اســتطعنا أن نخرج بقاعدة كلية تقول: "إن الطفولة توقف الأحكام"، فقد كان النبي ﷺ يربّي الأطفال بالحنان والحب والتوجيه السليم، فطالما كان يحمل أحفاده الحسن والحسين وأمامة حتى في الصلاة، وينـــزل من على المنبر رحمة بهم.

بل نستطيع أن نقول إن الحياة النبوية -عبادةً وعادةً- كانت تتوقف أمام الطفولة؛ فيســـرع ﷺ في الصـــلاة عند سماع بكاء الصغير، ويطيل الســـجود حتى ينتهي الحفيد من على ظهره وهو ساجد، وينـــزل من المنبر في وسط الخطبة ليأخذ الحسن أو الحسين في حضنه لمّا رآه يحبو. وقـــد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة.

نذكـــر منها مـــا رواه أبو هريرة ﷺ، قـــال: كنا نصلّي مع النبي ﷺ العشـــاء، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا رفع رأســـه أخذهما مـــن خلفه أخذا رفيقـــا ووضعهما في الأرض، فإذا عاد إلى السجود عادا إلى ظهره حتى قضى صلاته، ثم أقعـــد أحدهما علـــى فخذيه. يقول أبو هريـــرة: فقمت إليه، فقلت: يا رســـول الله، أردّهما؟ فبرقت برقة في الســـماء، فقال لهمـــا: "الحقا بأمّكما" فمكث ضوءها حتى دخلا (رواه الإمام أحمد).

وعن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يسجد فيجيء الحسن والحسين فيركب ظهره فيطيل السجود فيقال: يا نبيّ الله، أطلتَ السجود، فيقول :"ارتحلني ابني فكرهت أن أعجله" (رواه أبو يعلى).

وعن أنس ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ يسمع بكاء الصبي مـــع أمّه وهو في الصلاة، فيقرأ بالســـورة الخفيفة أو بالســـورة القصيرة" (رواه مسلم).

وعن أم خالد رضي الله عنها قالت: أتيتُ رسول الله ﷺ مع أبي [وأنا صغيرة]، وعليّ قميص أصفر، فقال رســـول الله: "سنه ســـنه" -قال عبد الله وهي بالحبشـــية: حسنة-. قالت: فذهبت ألعب بخاتم النبوة على ظهر رسول الله (رواه البخاري).

العدل بين الأولاد

ولما كان للعرب من ميراث جاهلي بتفضيل الذكور على الإناث اعتـــنى النبي ﷺ بالطفلة الأنثى، وحث على المســـاواة بينها وبين الذكر، فمِن ذلك ما ورد عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: "مـــن عال جاريتين حتى تبلغا جاء يـــومَ القيامة أنا وهو"، وضم أصابعه (رواه مســـلم). وفي نَهْيه عـــن تفضيل الذكر على الأنثى في التربية والعناية فقد قال ﷺ: "من كانت له أنثى فلم يئدها و لم يؤْثِر ولده -يعـــني الذكور عليها- أدخله الله الجنة" (رواه أحمد وأبو داود).

وعن أنس ﷺ أن رجلا كان جالســـا مع النبي ﷺ، فجاء ابن له فقبّله وأجلسه في حجره، ثم جاءت بنته، فأخذها فأجلسها إلى جنبه، فقال النبي ﷺ: "فما عدلتَ بينهما" (رواه البيهقي).

وعن عائشـــة رضي الله عنها أنها قالت: "أُتِيَ رسول الله ﷺ بصبيّ فبال على ثوبه، فدعا بماء فأتبعه إياه" (رواه البخاري).

فكان ﷺ يلاعب الأطفال ويمشي خلفهم أمام الناس، وكان يقبّلهم ويضاحكهم؛ فعن يعلى بـــن مرة ﷺ قال: خرجت مع النـــبي ﷺ وقد دُعينا إلى طعام، فإذا الحســـين بن عليّ رضي الله عنهما يلعب في الطريق، فأسرع النبي ﷺ أمام القوم ثم بسط يديه ليأخذه، فطفق الغلام يفر ههنا ويفر ههنا ورسول الله ﷺ يلحقه ويضاحكـــه حتى أخذه، فجعل إحدى يديه في ذقنه والآخرى في رأسه ثم اعتنقه، ثم أقبل علينا وقال: "حسين منّي وأنا من حسين" (رواه البخاري في الأدب).

وجاء الأقرع بن حابس إلى رسول الله ﷺ فرآه يقبل الحسن بن علي فقال الأقرع: أتقبّلون صبيانكم؟ فقال رسول الله: "نعم"، فقال الأقرع: إنّ لي عشـــرة من الولد ما قبّلت واحدا منهم قطّ، فقال له رسول الله ﷺ: "من لا يَرحم لا يُرحم" (متفق عليه).

وعن أبي قتادة الأنصاري أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أُمامة بنتَ زينب بنتِ رســـول الله ﷺ. ولأبي العاص بن الربيع بن عبد شمس: فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها (متفق عليه).

وعن أبي بريدة ﷺ يقول: "كان رسول الله ﷺ يخطبنا، إذ جاء الحسن والحسين رضي الله عنهما، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنـــزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه" (رواه أحمد والترمذي).

وكان ﷺ يعلّـــم الأطفال -برفـــقٍ- آدابَ الطعام؛ فعن ابن عباس ﷺ قال: كنت غلاما في حِجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: "يا غلام سمّ الله، وكُلْ بيمينك وكُلْ مما يَليك"، فما زالتْ تلك طعمتي بعد (رواه البخاري).

وكان ﷺ يداعب الأطفال ويواســـيهم بكلمات رقيقة؛ فعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ أحســـن الناس خلُقا، وكان لي أخ يقال له أبو عمير، وكان إذا جاء قال: "يا أبا عُمير ما فعل النُّغير؟". والنغير طائر صغير كان يلعب به هذا الطفل، وذلك لما رآه النبي ﷺ حزينا، لأن النغير مات، فجلس ﷺ يداعبه ويواسيه (متفق عليه).

تربية الأطفال منذ الصغر

وكان النـــبي ﷺ يؤكد على تعليم الأطفال الصدق من صغرهم، وذلك بأنه كان ينهـــي الكبير أن يكذب عليهم حتى لا يتعوّدوا على الكذب، وذلك لما في الكذب من آثار ســـيّئة أقلُّ ما فيها أنها تفقد الطفل الثقة في أبَوَيه إن هما كذبا عليه؛ فعن عبد الله بن عامر ﷺ قال: دعَتني أمّي ورســـول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت: ها تعال أُعطيك، فقال لهـــا ﷺ: "ما أردتِ أن تعطيه؟" قالت: أعطيه تَمرا، فقال لها: "أما أنّكِ لو لم تعطيه شـــيئا كُتبت عليك كذبة" (رواه أحمد وأبو داود).

فإذا انضمّ إلى ذلك ما أمر به الإسلام بشأن الطفولة من تحريم الزنا من أجل الحفاظ على الطفولة ونسل الأبناء، وجعل الحفاظ على النسل من الضروريات الخمس التي على أساسها بني التشريع الإســـلامي، كما أنه خفف على المرأة الحامل والمرضع، وذلك حـــتى يَقوما بتغذية الطفل وهو وليـــد ومن قبل ذلك وهو جنين رعاية له، واهتماما به.

كما أن الإسلام حرم الإجهاض لحفظ حياة الطفل المرتقب، وعدَّ ذلك جناية توجب العقوبـــة، وكذلك أحكام الحضانة في حالة الفصال الأبوي، كانت كلها لصالح الطفولة، وإيجاب النفقة والكسوة على الآباء في صالح الطفولة، واستحباب اختيار الاسم الحسَن، فمن حقّ الابن على أبيه أن يختار له اسما حسنا.

ومن قبل ذلك حثّ الإسلام على اختيار الزوجة الصالحة من الرجـــل، واختيار الرجل الصالح من المرأة. كل ذلك من أجل أن ينشأ الطفل في بيئة صالحة عناية له؛ فمرحلة الطفولة من أهمّ مراحل الإنسان وأخطرها شأنا، إذ هي مرحلة النّقش، ومرحلة الغَرس، فستكون الصورة على ما نُقشت، ويكون الزّرع على ما غرس.

وفي القرآن مجموعة من السلوكيات الرشيدة تبدأ من العقيدة، وبرّ الوالدين، وتنتهي بالســـلوك بين النـــاس، وذلك في نصيحة لُقمان الحكيم لابنه في سورة سمّيت باسم لقمان، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّـــرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۞ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۞ وَإِنْ جَاهَـــدَاكَ عَلى أَنْ تُشْـــرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَـــكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَـــبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّـــمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۞ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْـــرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ۞ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(لقمان:١٣-١٩).

لعل في مثال صلح الحديبية، ومثال تعامل النبي ﷺ مع الأطفال كثيرا من الدروس، ولعلّنا قد وُفقنا في الإشارة إلى بعض منها، رزقنا الله الفهم عنه سبحانه، وفهم سنة نبيه المصطفى ﷺ والعمل بذلك.■

(*) مفتي الديار المصرية.

تجدد الخطاب الديني
أو
سؤال المرجعية

د. سمير بودينار*

لا يمكن الحديث بصيغة تعميم تتجه إلى مستويات خطاب الدين كلها دون استثناء، أو ما اصطلح على تسميته على نطاق واسع بـ"الخطاب الديني"، خاصة إذا تعلق الأمر بمطلب التجديد الذي أضحى مطلبا ملحّا -رغم اتخاذه طابع الإلزام الصادر من خارج منظومة الدين نفسه ومتطلباته الذاتية-، ذلك أن الدين -أيّ دين- باعتبار إطلاقية مصدره لدى معتنقيه أوّلا، كما باعتبار خصائص التسليم التي تطبع علاقاتهم به، لا يمكن أن يكون مجالا مفتوحا للتجديد في كافة مستوياته.

من هنا تنبع أهمية التأكيد أن خطاب التجديد المتجه إلى الدين ليس مطروحا عليه بوصفه هوية شخصية، بل باعتبار وظيفته المرجعية، فالتجدّد كفعل ذاتي متجاوبٍ مع حاجات حقيقية إنما يقع من الدين في مساحات المرجعية. ولا شك أن أي مرجعية إلا وتتسم -بالضرورة- ببعض سمات المعتقد الديني، إذ لا يمكنها أن تحقق وظائف المرجعية التي يعتنقها الإنسان بوصفها منظومة اعتقادية بشكل من الأشكال دون أن تتسم بسمات المعتقد الديني، وبذلك فإن المرجعية خاضعة لحتمية التجدد الذاتي انطلاقا من تلك السمات.

الدين بوصفه مرجعية متجددة

والدين بتقديمه رؤية معرفية للإنسان، يزوّده بمنظومة من القيم والأحكام ذات مَقْدرة تفسيرية هائلة للظواهر والقضايا التي تشغله، إذ الإسلام -ومنطلقه القرآن- مثّل ذروة مرحلة الوحي ونقطة فاصلة اكتملت فيها رسالة السماء للأرض، لذا فإن الأهمية الاستثنائية لهذه النقطة تفرض التوقف عندها باعتبارها



حدثا فاصلا في تاريخ الإنسان يؤرَّخ به لما بعده، وبالتالي فإن تجليات الوحي وتنزّله في واقع الإنسان والعالم، -وعلى رغم التجربة الحضارية البالغة الغِنى لتفاعل العقل والواقع المسلم معه تاريخيا- تتجه بفعاليتها وانفتاحها عبر خط المستقبل، وبالتالي فإن مركز الثقل في هذا الوعي ليس في المرحلة التي تفصلنا عن اكتمال نزول الوحي (الماضي)، بل تلك التي تفصلنا عن اكتمال وجود الإنسان (المستقبل).

إن التجربة الحضارية للإنسان في استلهامه من الدين (الإسلام) وتفاعله معه، والتي تتجلى على امتداد المساحة الزمنية التي تفصلنا عن بداية تنزل الوحي، ورغم انطباعها بالغنى والثراء، ليست في الواقع إلا جزءا يسيرا من تجليات مقدرة الوحي التفسيرية لظواهر الحياة والإنسان، بل لقدرته على الفعل في مسار البشرية وأداء مقاصده الكبرى بحفظ الإنسان والدين والكون (المفصلة في كليات الدين ومقاصده الخمس).

ولعل التحديات الاستثنائية التي أصبحت تواجه تحقيق تلك المقاصد (الأهداف الكبرى) صارت تقتضي من الإنسان لزوما العملَ على تجديد قدرته على التعامل مع جوهر الدين، وزيادة فعالية أدواته في التفاعل والاستيعاب والاستنباط والمساءلة والتفسير. غير أن تجديد القدرة تلك لا ينبغي أن يفهم باعتباره متجها إلى جوهر الدين، أي مضمون رسالته؛ فالتجديد هنا لا علاقة له مطلقا بجوهر تلك الرسالة، إذ الإيمان بالدين من مقتضاه التسليم بإطلاقية عناصر الهداية والإقناع والتسديد فيه، كما يقول "غوته" عن الإسلام في "الديوان الشرقي الغربي" أنه: "إذا كان الإسلام يعني التسليم لله فإننا جميعا نعيش ونموت مسلمين". أما التحدي الواقع اليوم فهو أن يكون الإنسان المسلم أهلا لتتنزّل تلك العناصر في حياته، أو الحيلولة دون مسار في الفكر والخطاب يتحول الإنسان المسلم بمقتضاه إلى عنصر معيق لذلك الجوهر المعبر عن مقاصد الإسلام، في أن يتحول إلى خطاب واضح وفعال يؤدي رسالته إلى العالم.

لقد كانت قدرة الإنسان على استنطاق مكنونات الوحي عبر مسار العلاقة بينهما مرتبطة بصيغة بناء الأسئلة التي يطرحها في عملية مساءلته لمعاني الدين ومكامن المعرفة فيه. فالتجديد في خطاب الدين بهذا المعنى ربما ظل بعيدا عن بلوغ الأهداف المطروحة اليوم في مجمل الخطابات البديلة السائدة، ما لم يتم التركيز عبره على إعادة بناء سؤال الإنسان للوحي بأمثَل صيغة متاحة، لتكون مقدرته على الاستفادة من ذلك الوحي في أمثل مستوى متاح، وهو ما يؤكد أن مجال التجدّد المطلوب ربما كان خطابَ الدين للإنسان في العصر الذي يعيش فيه وكيفية تزويده بمقومات الهداية والسداد والسعادة، من خلال حسن استنطاق ذلك الخطاب بالسؤال الصائب.

معيارية التجدد في خطاب الدين

هنالك سؤال ينتصب ملحا كلما طرق موضوع التجدد في خطاب الدين، ذلك هو سؤال المعيارية، فما هو المعيار الحاكم لعملية التجدد؟ هل يكون آراء ومواقف المتتبعين والنقاد؟! أي أولئك المعنيين أساسا وربما حصرا بـ"صورة الدين"، الذين يؤسسون معاييرهم في بناءِ أو مساءلة خطاب الدين على"صورته لدى الغير".

ولعل موقف كثير من علماء الاجتماع الذين يتابعون تجليات الظاهرة الدينية في الغرب خاصة، يشير إلى عمق الأزمة التي تعاني منها أطروحة "متتبعي الخطاب الديني ونقاده" عندما يطرحون السؤال المتعلق بالإسلام خاصة، وهو كيف تكون أكبر حصة من النقد موجهة لخطاب الإسلام الذي يتفق علماء الاجتماع على أنه أكثر الأديان تأثيرا وفاعلية في استيعاب أي نموذج إنساني أو اجتماعي، واستيعابه في منظومة فكرية وأخلاقية مؤسَّسة على قيمه المتعالية؟

إن خطاب الإسلام الراهن رغم كل الملاحظات التي يمكن قولها عنه يظل في نظر هؤلاء أحد أكثر الخطابات إقناعا، بل إن مضمونه المعرفي لا يكاد يقارن من حيث حجم الأسئلة الوجودية التي يقدم أجوبة عنها بأي خطاب آخر.

والملاحظ أن أي خطاب للدين لم يكن بإمكانه التجدد في غياب التزام ذي طبيعة أخلاقية بمقصد محدد، إذ في غيابه تقع عملية التجديد في مسار عبثي تكون محصلته إفراغَ الخطاب من أي قدرة على الفعل، بأن يسقط في النسبية المطلقة والإبهام فيصير إلى العدمية، أو في التجزيء فيتحول الإسلام وخطابه إلى أي شيء آخر إلا أن يكون الإسلام نفسه، كما وقع حين طرح البعض خطاب "الإسلام الاشتراكي"، أو "الإسلام الرأسمالي"، الذي ازدهر كثيرا بعد حالة النجاح الجزئي الذي حققته التيارات الإسلامية على مستوى المؤسسات البرلمانية في الدول العربية.

إذن فثمة حاجة أساسية للاتفاق ولو في شكل نسبي على

معيارية التجدد في الخطاب، بل ومقصديته كذلك.

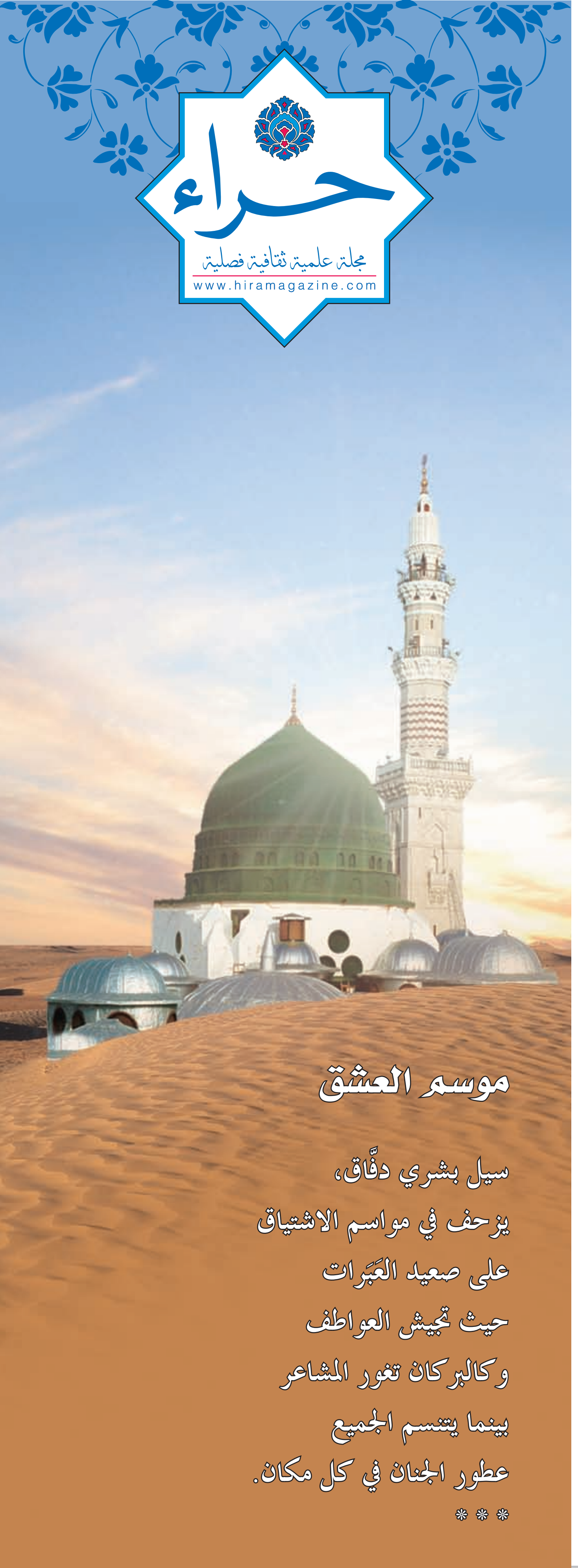
إن غياب الالتزام بمقصد الدين/المرجعية يؤدي إلى أنه بدلا من أن يتجدد خطاب الدين نفسه فإنه يتحول إلى خطاب ذي طبيعة مغايرة. ومن هنـــا تتضح أهمية إدراك ثوابت هذه المرجعية، وهو المطلـــب الذي يبدو غير قابل للتحقّق بغير النظر في منظومة القيم التي على أساســـها يتحدد مقصد الخطاب ومعايير تجدده، ليكون الالتزام الأخلاقي بمنظومة القيـــم الحاكمة معيارا ومحدِّدا لتجدد الخطاب الديني نفسه.

ففي ضوء منظومة القيـــم تتحدد القيمة المركزية أو العليا في المرجعية والقيم الثانوية لهـــا. وإذا كانت القيمة المركزية -على ســـبيل المثال- في الاشتراكية هي "المساواة"، والقيمة المركزية في الليبرالية الرأسمالية هي "الحرية"، فإن التجربة الإســـلامية قامت بجعل "العدالة" قاعدة التعامل المجتمعي، لتأخذ الحرية والمســـاواة بُعدهما الإنساني في إطار العدالة.

ولذلك اعتبر بعض مفكري الإسلام المعاصرين والقدماء على الســـواء، أن القيمة العليا فيه هي العدالة، إذ -كما قال ابن أبي الربيع في ســـلوك المالك-: "تحقيـــق الحرية بمطلقها قد لا يضمن تحقيق العدالة أو المساواة، وكذلك تحقيق المساواة وإطلاقها قد لا يعنيـــان ضمان الحرية والعدالة، أما جعل العدالة القيمةَ العليا فإنه يضمن تحقيق الحرية والمساواة بما لا يخل بالعدالة".

والواقع أن عملية اســـتيعاب القيمة العليا تعني أن هذه القيمة تؤثـــر على القيم الأخرى وتؤثر على الفهم الخاص ببقية المنظومة القيمية. ولعلنا بإدراك قيمة العدل أو بصيغة أشمل "العدالة" كقيمة عليا في الإســـلام ندرك مبلغ ما يمكن لخطاب الإسلام أن يؤثره في واقع عالم يجمع بين تطلع أبنائه المشترك إلى العدل، وبين واقع ظالم يعيشـــه في أكثر من مجال وعلى شـــتى الصُعُد، واقع عرف أكثر صور الخلل في نظام العدالة مع اكتمال "مشـــروع العولمة التأحيـــدي، الذي لا يغيّب خصوصيـــات المجتمعات وهويات الأمم فحســـب، بل كذلك حقوقها في الاســـتفادة المنصفة من خـــيرات العالم، بل من إمكاناتها الذاتيـــة، والأهم من ذلك كله تطلعاتها الروحية ومطالبها المعنوية.■

(*) رئيس مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة / المغرب.



موسم العشق

سيل بشري دفَّاق،
يزحف في مواسم الاشتياق
على صعيد العَبَرات
حيث تجيش العواطف
وكالبركان تغور المشاعر
بينما يتنسم الجميع
عطور الجنان في كل مكان.
* * *



﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾(النور:٤٣).

البرَد بين العلم والقرآن

د. محمد راتب النابلسي*

البرَد هو أحد الظواهر الأكثر تعقيدا، والتي بحثها العلماء طويلا، ولم يــزل هنالك الكثير مما نجهله حول هذه الظاهرة الخطيرة والجميلة، والتي تؤدي إلى خســارات تصل إلى مئات الملايين من الدولارات كل عام. ففي إحدى عواصف البرَد في عام ٢٠٠٠ قُتل أحد الناس عندما سقطت عليه حبَّة برد بحجم حبة التفاح. وفي عام ١٩٨١ سببت عاصفة رعدية نزل فيها البرد بكميات كبيرة في الولايات المتحدة خســارة أكثر من ١٠٠ مليون دولار. وأكبر حبة برد سقطت كانت في ولاية كنساس عام ١٩٧٠ وتزن ٧٥٠ غراما.

يتجلى تعقيد هذه الظاهرة من خلال العمليات بالغة التعقيد التي ترافق تشكل البرَد، لأن تشكله يتم أثناء العواصف الرعدية، والتي تصل فيها ســرعة التيار الهوائي المتجــه لأعلى الغيمة إلى ١٦٠كم في الســاعة أو أكثر. ويقوم العلماء اليوم باســتخدام الرادارات التي تعمل بالأشــعة تحت الحمــراء، وكذلك الأقمار الاصطناعية لدراسة أسرار هذه الظاهرة المعقدة.

لقد نُسجت الأســاطير قديماً حول الظواهر الكونية المخيفة مثل كســوف الشــمس والبرق والرعد وظاهــرة البرَد. فكان للناس معتقدات ينســبون فيها هذه الظواهر إلى الآلهة. ولقد نزل القرآن العظيم في القرن السابع الميلادي، وفي ذلك العصر كانت الأســاطير تملأ معتقدات البشــر. ولكن كيف عالج القرآن هذه الظاهرة ومــاذا يقول عنها؟ إن المنطــق العلمي يفرض كما في جميع الكتب البشرية أن المؤلف عندما يتحدث عن ظاهرة كونية تجده ينقل لنا الأساطير التي تأثر بها، وتجد في ذلك الكتاب ثقافة ذلك العصر. والسؤال: هل تأثر القرآن فعلاً بثقافة القرن السابع الميــلادي؟ وهل صحيح ما ينادي به بعضهم اليوم من أن القرآن نص تاريخي يقبل التبديل والتغيير بما يتناسب مع علوم كل عصر؟ لنطلع أوّلا على ما يقوله علماء القرن الحادي والعشــرين حول أســرار البرَد والعمليات الفيزيائية المعقدة لتطور حبّة البرَد، وبعد ذلــك نطلع على ما جاء في القرآن حول تشــكل البرَد، ونتأمل ونتساءل: هل يوجد أي اختلاف أو تناقض بين العلم والقرآن؟! وهذا ما نجده واضحــا في كتاب الله تعالى عندما أمرنا أن نتدبَّر القرآن لنســتيقن بأنه كتاب الله. يقــول تعالى مخاطبا كل ملحد وكل مؤمن: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُــرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾(النساء:٨٢).

كيف يتشكل البرد؟

يبدأ تشكل البرَد عندما تكون درجة الحرارة منخفضة جدا دون الصفر، حيث تتجمع قطيرات الماء الصغيرة والشـــديدة البرودة لتتجمد وتُشكّل حبةَ البرَد. ويقول العلماء: إن حبة البرد الواحدة والصغيرة يستغرق تشـــكلها زمناً ٥-١٠ دقائق، وتحتاج لمئات الملايين من قطيرات الماء التي تتجمع لتشكيل حبّة برد واحدة، وقد يصل أحيانا قُطر حبة البرد إلى ١٥ سم، وتصطدم بالأرض بسرعة ١٨٠ كم. يتشكل البرد على ارتفاعات عالية تصل إلى ١٨ كم. يتشـــكل البرد حول قطرات الماء المجمدة، أو حول ذرات الثلج الصغيرة وقد يحوي البرَد في داخله بعض الغبار والأتربة العالقة أو الحشرات الصغيرة التي ســـاقها التيار الهوائي في الجو بين الغيوم.

ويؤكد العلماء علـــى أن الغيمة الأطول تملك فرصة أكبر في تشـــكل البرَد بسبب ملامستها لطبقـــات الجو العليا شـــديدة البرودة. والتيـــارات القوية من الهـــواء مطلوبة لتأمين تشـــكل البرَد وحملِه والتغلب على قوى الجاذبيـــة الأرضية خصوصا إذا كانت حبات البرَد كبيرة، وهذه التيارات هي ما يســـبب تشكل أبراج مـــن الغيوم الركامية كما يقول العلماء. وكلما كان التيار الهوائي المتجه للأعلى قويا كانت حبات البرَد أكبر، وعندما يعجز التيار الهوائي عن حمل حبات البرَد فإن البرَد يسقط. لذلك عندما نقطع حبَّة البَرَد إلى نصفين نلاحظ عددا من الحلقات على شكل طبقـــات متعددة تماما كحلقات البصلة، وهذا يعني أن حبة البرد تتشـــكل على مراحل، كل مرحلة تنمو فيها حلقة. وقد لاحظ العلماء أن المطر ينـــزل من كل الغيمة بينما البرد يســـقط فقط من ممرات محددة من الغيمـــة وتدعى صفوف البرَد. وجميع هذه المراحل والتي تسبق تشـــكل البرد ضرورية ولا يمكن أن يتشكل البرد بدونها.

يتواجد البرد بشكل شـــبه دائم في أعالي الغيوم وأواسطها. وعلى كل حال إما أن تذوب حبة البرد قبل وصولها إلى الأرض أو تكون صغيرة الحجم فتـــذوب داخل التيار الهوائي في الغيمة.

وقد تبين أن معظم البرد المتشـــكل في الغيمة (من ٤٠-٧٠ ٪) يذوب قبل وصوله إلى الأرض. وأخيرا يؤكد العلماء أن التيارات الهوائية المتجهة نحو الأعلى لا تقتصر مهمتها على تشكيل البرَد، بل إنها أيضا مسؤولة عن دفع قمم الغيوم الركامية عاليا إلى طبقة التروبوسفير، مما يؤدي لخلق البيئة المناسبة لحدوث البرق.

والآن وبعدما تعرّفنا على الحقائق العلمية اليقينية حول ظاهرة تشكل البرَد والتي هي محل اتفاق العلماء، وبعد أن اطلعنا إلى أهم الاكتشـــافات في هذا المجال، ماذا عن كتاب الحقائق (القرآن)؟ وكيف تناول كتاب الله تعالى هذه الظاهرة، وكيف وصفها؟

حقائق علمية من القرآن

لقد تحدث القرآن عن البرَد في آية من آياته العظيمة. جمع الله ﷻ في هذه الآية كل الحقائق العلمية التي رأيناها بمنتهى الدقة والإيجاز، وبنفـــس التسلســـل العلمي.



لقد بـــدأت الآيـــة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَـــرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَـــحَابًا﴾(النور:٤٣). وقد رأينا أن عملية تشـــكل الـــبرد تبدأ بدفع التيـــارات الهوائية للغيوم وتجميعها والتآلف بينها، وكلمة ﴿يُزْجِي﴾ تعني في اللغة "يسوق ويدفع". وهـــذا ما نراه في أول مرحلة من مراحل تشكل البرد. ثم تـــأتي المرحلة الثانية بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي يجمع بين الســـحب، وهذه المرحلة رأيناها عندما تبدأ الغيوم بالتجمع. ثم تأتي المرحلة الأخيرة لتشكل الغيوم وهي الغيوم الركامية، وهذه نجدها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾. وكلمة "رَكَم" في اللغة تعني "ألقى الأشياء بعضها فـــوق بعض"، وهذا ما يحدث تمامـــا في الغيوم الركامية حيث تدفعها التيـــارات الهوائية باتجاه الأعلـــى وتجمّعها باتجاه عال يشـــبه الأبراج ذات القاعدة العريضة وتضيق كلما ارتفعت للأعلى وتكوّن شـــكلاً يشـــبه "الجبل". وتأمّل كيف يستخدم القرآن كلمـــة ﴿رُكَامًا﴾ وهي نفس الكلمة التي يســـتخدمها العلماء اليوم "الغيوم الركامية". وفي المرحلة التالية يبدأ تشـــكل المطر ونزوله. وهـــذا ما تخبرنا عنه الآية بعد ذلك في قوله تعالى:

﴿فَتَرَى الْــوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ وقــد ثبت أن المطر الغزير وهــو "الودق" يخرج من جميع أجزاء الغيمة، وهذا ما أشـــارت إليه الآية في عبارة ﴿مِنْ خِلالِهِ﴾. والآن بعدما تشكلت قطيرات المطر أصبح تشكل البرد ممكنا، وذلك من خلال اجتماع ملايين القطيرات من الماء شـــديد البرودة لتشــكيل حبات البرد والتي تتجمـــع في مناطق محددة في أعلى وأوســـط الغيمة. ويبدأ نزول البرد من مناطق محددة أيضا، وهذا ما تحدثنا عنه الآية بعد ذلك: ﴿وَيُنَــزِّلُ مِنَ السَّــمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَــا مِنْ بَرَدٍ﴾ وهنا نلاحظ أن القرآن يستخدم كلمة ﴿جِبَالٍ﴾ والعلماء يستخدمون كلمة "أبراج" من الغيوم، لأنهم وجدوا أن شكل الغيوم التي تحوي البَرَد يشبه البرج. فتأمل التقارب الشديد بين الكلمة القرآنية والكلمة العلميــة. ونلاحظ أيضا كيف يراعي القرآن تسلســـل المراحل. ويقول العلماء أيضا: إن البَرَد لا يوجد في جميع أجزاء الغيمة بل في مناطق محددة فيها، وينــزل من مناطق محددة أيضا وليس من الغيمة كلها، ولذلك لم يقل تعالى: وينـــزل البرَد، بل قال: ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ أي إن جبال الغيوم الركامية تحوي شــيئا من البرَد. ولكن قسما كبيرا من البَرَد المتشــكل يذوب قبل وصوله إلى الأرض، وقسما آخر يذوب داخل الغيمة. وهذا ما عبَّر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَــاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾. إذن الله تعالى يصيب بهذا البرَد من يشـــاء فتجـــد أن حبات البرد تبقى متجمـــدة حتى تصل إلى الأرض، ويصـــرف الله تعالى هذا البرد عمن يشـــاء من خلال ذوبان الجزء الأكبر من حبات البرد وعدم وصولها إلى الأرض. ولكن بقي شــيء مهـــم يحدثنا عنه العلماء كما رأينا وهو موضوع البرق وارتباطه بالبرد. فالبيئة المناســـبة لتشكل البرد هي ذاتها المناسبة لحدوث ومضة البرق، وهذا أيضا حدثنا عنه القرآن في نفس الآية في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَــنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾. فتأمل أخي القارئ هذا التسلســـل العجيب!

الإعجاز العلمي للآية

لنكتب الآن الآيـــة كاملة ونَرَ الحقيقة العلميـــة الكاملة لظاهرة تشـــكل البرد: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَــحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَــزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَـــا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَــاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾(النور:٤٣). إن الذي يتأمل هذه الآية الكريمة يدرك مباشـــرة التطابـــق والتوافق الكامل مع معطيات العلم الحديث، ويدرك أيضا أنه لا اختلاف ولا تناقض بين الحقيقة العلميـــة اليقينية وبين النص القرآني. وفي هذا الدليلُ العلمي على أن القرآن إنما نزل بعلم الله ﷻ، وأنه لا ينبغي لبشر -ولا يســـتطيع أبدا- أن يتحدث عن هذه الظاهرة المعقدة بكل الدقة العلمية التي رأيناها.

والآن نلخص إعجاز الآية من خلال ذكرها لمراحل تشكل البرَد:

١-﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَــحَابًا﴾: إشــارة إلى التيارات الهوائية التي تدفع وتسوق السحب باتجاه الأعلى.

٢-﴿ثُــمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾: إشــارة إلى تجميع الغيوم لتشــكل تجمعات كبيرة من السحب.

٣-﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾: إشارة إلى تشكل الغيوم الركامية، أي المتراكم بعضها فوق بعض.

٤-﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ﴾: إشــارة إلى تشــكل قطرات المطر وخروجها من أجزاء الغيمة.

٥-﴿وَيُنَــزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾: إشارة إلى الشكل الهندسي للغيوم الركامية، حيث تشبه الجبال في شكلها، وإشـــارة أيضا إلى أماكنِ تشكّلِ وتجمّعِ البرَد في أجزاء محددة من الغيوم وليس في كلها.

٦-﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَــاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾: إشارة إلى وصول جزء من البرَد إلى الأرض، وذوبان الجزء الآخر وعدم وصوله إلى الأرض.

٧-﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾: أي يكاد ضوء البرق يذهب بالأبصار، وفي هذا إشارة لحدوث البرق في هذه البيئة التي تَشكَّل فيها البرَد.

هذه المقاطع السبعة تُشكل آية عظيمة، تَحدث فيها الله تعالى عن تشكل البرد ومراحله وعلاقته بالبرق بكلمات في قمة البلاغة والبيان. ولكن العلماء اســتغرقوا عشـــرات السنين من البحث والتجارب، وبالنتيجة وصلوا إلى الحقائق ذاتها، والســؤال: أليس هـــذا إعجازا واضحا للآية الكريمـــة؟ إن هذه الحقائق دليل على أن القرآن كتاب الله، ﴿وَلَــوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾(النساء:٨٢).■

(*) أستاذ الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في كليات الشريعة وأصول الدين / سوريا.

تراتيل مائية بلون الرؤى

(في ذكرى المولد الشريف)

د. محمد عبد الله المجري*

كم عَذَّبَ الحُبُّ روحاً في الهوى وسَبَا ... وشتَّتَ القلبَ حيراناً ومضطربا
إنْ يَذْكُر الحُبَّ، من فرطِ الجنونِ هفا ... أو يَذْكُر الحِبَّ، من فرطِ الجوى وثَبَا
فالعقلُ في حُجُبٍ، والفكرُ في دَلَهٍ ... والروحُ في سَقَمٍ، والقلبُ قيلَ كَبَا
للحبِّ منزلةٌ، فيك الهوى صَببا ... أعلى مقاصِدِها بين الورى رُتَبَا
يا مصطفى اللهِ، يا قصدي، ومعتمدي ... يا أحمدَ الحبِّ، يا من حبُّه وجبا
حبٌّ لأجمل مَنْ رأى الخيالُ، ومن ... هوى الفؤادُ، ومن للعقل قد سلبا
حبٌّ تملَّكني في كلِّ خاطرةٍ ... أنَّى ذهبتُ فقلبي فيه قد ذهبا
حبٌّ عرفتُ به معنى الحياةِ إذا ... معنى المماتِ ومعنى الغيبِ قد حُجِبا
يا قبلةَ الناسِ حين الناسُ زلزلَهم ... رعبُ القيامةِ: مِنْ هَوْلِ اللظى رَهَبَا
يا مَفْزِعَ الخلق إن ضاقت بهم سُبُلٌ ... إذا الرفيقُ تولى ثَمَّ أو هربا
يا روضةَ الصحبِ عند الحوضِ تجمعُهم ... يا ملتقى مَن رجا أو تاب أو طلبا
لي في هواك تراتيلٌ شُغِفْتُ بها ... قيَّدتُ روحي لها في الله مُحتسِبا
إن دلَّه القلبُ في حبِّ النبي فما ... أحْرَاهُ، أو هامَ مجنونًا به وصَبَا
ما ضَرَّ عاشقَهُ أنْ يرتمي شَغَفا ... في سَكْرةِ الحبِّ مأخوذًا ومنسكبا
من علَّم الحبَّ والإيمانَ مجتهدًا ... ما واهبٌ وَهَبَ الحُبَّ الذي وهبا
المصطفى خُلُقا، المصطفى وَرَعا ... المصطفى حَسَبا، المصطفى نَسَبا
قد أُعلن الحقُّ في كل الرُّبا فرحاً: ... قد اصطفى اللهُ طه، واصطفى العربا
يا سيدي يا رسول الله، أيُّ هوىً ... يجري بروحي، فيسري ملأها طربا
أنتَ الأخُ الناصحُ، الوافي، وأنت أبٌ ... أحببتُ فيك أخاً، أحببت فيك أبا
أنتَ الذي أخلص المولى محبَّتَهُ ... أنتَ الذي صَدَقَ التقوى وما كَذَبَا
جَهِدْتَ أن يبلغَ الإنسانُ مبلغَه ... في صحةِ الدينِ والدنيا كما وَجَبَا
جاهدتَ في الله طاغوتاً وطاغيةً ... حطَّمتَ بالحق جباراً ومغتصبا
بَيَّنْتَ للناسِ هَوْلَ الأمرِ عاقبةً: ... كلّ امرئ نائلٌ ما اختار ما اكتسبا:
فالمقسطون لهم في الله مأملُهم ... والقاسطون فكانوا للظى حطبا
والخائنون لهم في النار أسفلها ... من لّم يمعرْ لِحَقٍّ وجهَهُ غضبا
ما قدوتي في الملا إلاك يا مثلي ... إذ كنتَ لي في هوى دينِ الهدى سببا
يا رَبّ وَجِّهْ فؤادي في العُلا مثلاً ... واجعلْ نبيَّك والقرآنَ لي أدبا
ربيعَ قلبٍ وصدرٍ بالغَا زللاً ... ورَوْحَ حزنٍ وهمٍّ في الأسى ذهبا
هذي البساتين من شِعْري لكم زَهَرًا ... أسعى بها سائلاً صبًّا ومُطَّلِبا
قربى إلى الله، لو يعفو بها زللي ... أدعوه، إن رغباً أرجو وإن رهبا

(*) أستاذ الأدب والنقد بجامعة العلوم والتكنولوجيا / اليمن.



الخصائص المنهجية لثقافة السلام

عند الأستاذ النورسي

د. مولاي المصطفى الهند*

إن ثقافة السلام المبثوثة في رسائل النور عبارة عن تلك القيم الحضارية الإسلامية السامية التي تعتبر أكبر من مجرد حقوق يجب أن تصان، وإنما هي أصل من أصول العقيدة السمحة، وعنصر من عناصر التربية الإسلامية الفريدة التي تسهم في بناء الفرد المسالم والمجتمع الآمن. فجاء عرضنا المختصر هذا ليجلّيها ويقف عندها، إسهاما في توضيح منهج الأستاذ النورسي في معالجة المشاكل الاجتماعية التي تتخبط فيها المجتمعات البشرية اليوم، وبيان الصورة الفعلية لروح الإسلام، ذلكم الدين الذي يأمر أهله بإلقاء تحية السلام على من يعرفون ومن لا يعرفون.

حقيقة العداء ووجوهه

حين أراد العلامة النورسي رحمه الله أن ينبه الأمة الإسلامية إلى بعض المظاهر الاجتماعية الخطيرة التي يمكن أن تنشأ بين المسلمين، استعمل مصطلح "العداء". فالعداء لا يعني فقط الظلم وتجاوز الحد، بل يعني كذلك الفساد والمنع والبعد. وهذا يكاد يجمع النقائص كلها، فيحدث شرخا بين أفراد المجتمع. ومن هنا عبر الإمام النورسي عن مفهوم العداء فقال: "إن العداء ظلم شنيع يفسد حياة البشر الشخصية والاجتماعية والمعنوية، بل هو سمّ زعاف لحياة البشرية قاطبة". فاعتَبر العداء مرفوضا بكل المقاييس؛ "ترفضه الحقيقة والحكمة، ويرفضه الإسلام الذي يمثل روح الإنسانية الكبرى".

وقد ذكر لهذه الحقيقة ستة أوجه:

الأول: إن عداء الإنسان لأخيه الإنسان ظلم في نظر الحقيقة؛ فكما لا يجوز إغراق سفينة برمتها تضم مجرمين طالما فيها بريء واحد، فإنه لا يجوز كذلك أن يحمل الإنسان لأخيه الإنسان في نفسه العداء والحقد لمجرد صفة إجرامية واحدة فيه. وموقفه هذا واضح لكونه يعتبر الإنسان بناء ربانيا وسفينة إلهية. وهذه لمحة فلسفية عميقة قلّما نجدها في الفكر الإسلامي.

الثاني: إن العداء ظلم في نظر الحكمة، إذ العداء والمحبة نقيضان، فهما كالنور والظلام لا يجتمعان معا بمعناهما الحقيقي أبدا. فإذا ما اجتمعت دواعي المحبة وترجحت أسبابها فأرست أسسها في القلب، استحالت العداوة إلى عداء صوري، بل انقلبت إلى صورة العطف والإشفاق، إذ المؤمن يحب أخاه، وعليه أن يوده، فأيما تصّرف مشين يصدر من أخيه يحمله على الإشفاق عليه، وعلى الجد في محاولة إصلاحه باللين والرفق دون اللجوء إلى القوة والتحكم. أما إذا تغلبت أسباب العداوة والبغضاء وتمكنت في القلب، فإن المحبة تنقلب عندئذ إلى محبة شكلية تلبس لبوس التصنع والتملق.

ونبه الأستاذ إلى ما يرتكبه الإنسان من ظلم في حق أخيه الإنسان حين يستعظم زلات صدرت منه في حقه، ويستهول هفوات وسلوكات مشينة ارتكبها. فمهما ارتكب الإنسان المؤمن في حق أخيه المؤمن من أخطاء وزلات فإنها جد بسيطة إذا ما قورنت بعظمة إيمانه وسمو إسلامه.

ومن هنا جاءت دعوته إلى وحدة المجتمع الذي هو من مقتضيات وحدة العقيدة التي ترتبط بوحدة قلوب المؤمنين، فقال رحمه الله: "إن خالقكما واحد، مالككما واحد، معبودكما واحد، رازقكما واحد... وهكذا واحد، واحد... إلى أن تبلغ الألف. ثم إن نبيكما واحد، دينكما واحد، قبلتكما واحدة... وهكذا واحد، واحد... إلى أن تبلغ المائة. ثم إنكما تعيشان معا في قرية واحدة، تحت ظل دولة واحدة، في بلاد واحدة... وهكذا واحد، واحد إلى أن تبلغ العشرة".

الثالث: العدالة المحضة الواردة في الآية الكريمة: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(الأنعام:١٦٤)؛ حيث لا يجوز أن يعاقَب إنسان بجريرة غيره. ويوضح كيف أن العداء الذي يحمله الإنسان المؤمن بين جنبيه تجاه أخيه المؤمن هو ظلم عظيم، لأنه إدانة لجميع الصفات البريئة الطاهرة التي يتصف بها. وبما أن الظلم لا يجر وراءه إلا المفاسد والمهالك، فإن هذه المفاسد هي سبب العداء والبغضاء، وهي كثيفة في نظر الحقيقة، "وشأن الكثيف أنه لا يسري ولا ينعكس إلى الغير -إلا ما يتعلمه الإنسان من شر من الآخرين- بينما البر والإحسان وغيرهما من أسباب المحبة، فهي لطيفة كالنور وكالمحبة نفسها، ومن شأن النور الانعكاس والسريان إلى الغير".

الرابع: إن العداء للمؤمن ظلم مبين من حيث الحياة الشخصية، ووضّح هذه الفكرة من خلال جملة من الدساتير:

• إن الإنسان له أن يدّعي أن مسلكه حق أو هو أفضل، لكن لا يجوز أن يدعي أن الحق مسلكه هو فحسب، لأن نظره الناقص لا يخول له ذلك، وهذا تنبيه له حتى لا يقع في خطأ تجاه أخيه الإنسان.

• عليك أن تقول الحقَّ في كل ما تقول، ولكن ليس لك أن تذيع كل الحقائق. وعليك أن تصدُق في كل ما تتكلمه، ولكن ليس صوابا أن تقول كل صدق.

• كل من يريد العداء، عليه أن يبدأ بعداوة ما في قلبه وما تحمله نفسه، فبهذا فليبدأ، وبعد ذلك يمكنه أن يعادي خصمه، وإن أردت أن تغلب خصمك فادفع سيئته بالحسنة، فبه تخمد نار الخصومة. أما إذا قابلت إساءته بمثلها فالخصومة تزداد، حتى لو أصبح مغلوبا -ظاهرا- فقلبه يمتلئ غيظا عليك، فالعداء يدوم، والشحناء تستمر.

• مرض الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، ويأتي على الأخضر واليابس في حقل العلاقات الاجتماعية. فالحاسد يعذب نفسه عذابا أليما، ولا يلحق المحسود شيء منه؛ فإذا كان ناشئا عن أمور دنيوية فالأحرى للحاسد أن لا يهتم به لأنها أمور زائلة وفانية، وإذا كان منشؤه عن دوافع أخروية فليس فيها حسد أصلا.

وفي حالِ إذا مست الإنسانَ المسلم إساءة من أخيه المسلم، فلا يجب عليه أن يدينه وحده، لأن عوامل أخرى تتدخل في الموضوع، منها:

أ- القدر الإلهي له حظه في الأمر، فعليك أن تستقبل حظ القدَر هذا بالرضى والتسليم.

ب‍ــ–إن للشيطان والنفس الأمارة بالسوء حظهما كذلك. فإذا ما أخرجتَ هاتين الحصتين لا يبقى أمامك إلا الإشفاق على أخيك بدلا من عدائه. لأنك تراه مغلوبا على أمره أمام نفسه وشيطانه. فتنتظــرُ منه بعد ذلك الندمَ على فعلته، وتأملُ عودته إلى صوابه.

ج‍ــ–عليك أن تلاحظ في هذا الأمر تقصيرات نفسك، تلك الــتي لا تراها أو لا ترغب أن تراها، فاعزل هذه الحصة أيضا مع الحصتين السابقتين، تر الباقي حصة ضئيلة جزئية، فإذا استقبلتها بهمة عالية وشهامة رفيعة أي بالعفو والصفح، تنجو من ارتكاب ظلم وتتخلص من إيذاء الآخرين.

الخامس: مدى الضرر البالغ الذي يصيب الحياة الاجتماعية جراء العناد والتنافر والتفرقة؛ وردّ على أولئك الذين يستشهدون بحديث الرســول ﷺ: "اختلاف أمتي رحمــة"، ويتخذونه مطية لتبرير النــزاع والشقاق والاختلاف، ففسر الحديث تفسيرا ينمّ عــن حظه الوافر في فقه الحديث فقال: "إن الاختلاف الوارد في الحديث هو الاختلاف الإيجابي البنّاء المثبت. ومعناه أن يســعى كل واحد لترويج مسلكه وإظهار صحة وجهته وصواب نظرته، لإكمال النقص ورأب الصدع والإصلاح ما استطاع إليه سبيلا. أمــا الاختلاف الســلبي فهو محاولة كل واحد تخريب مســلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة والعداوة، وهذا مردود أصلا في نظر الحديث، حيث المتنازعون والمختلفون يعجزون عن القيام بأي عمل إيجابي بناء".

وختم النورســي هذا الوجه الخامس بتوجيه نداء إيماني حار إلى أهل الإيمان والإســلام ينبههم فيه إلى مكامن القوة والضعف عندهم، ويجلّي لهم الفوارق بين العزة والذل، وكيف أن تضخيم صوت "أنا" في النفس قد يكون ســببا مباشــرا في هلاك الأمة، وهكذا قــال: "أيها المؤمنــون! إن كنتم تريــدون حقا الحياةَ العزيزة، وترفضون الرضوخ لأغــلال الذل والهوان، فأفيقوا من رقدتكم، وعودوا إلى رشدكم، وادخلوا القلعة الحصينة المقدسة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(الحجرات:١٠)، وحصنوا أنفســكم بها من أيدي أولئك الظلمة الذين يســتغلون خلافاتكم الداخلية. وإلا فســتعجزون عن الدفاع عن حقوقكم بل حتى عن الحفاظ على حياتكم، إذ لا يخفى أن طفلا صغيرا يســتطيع أن يضرب بطلين يتصارعان، وأن حصاة صغيرة تلعــب دورا في رفع كفة ميزان وخفض الأخرى، ولو كان فيهما جبلان متوازنان".

الســادس: كان مقتضبــا ومختصرا، تنــاول فيه الإخلاصَ باعتباره وســيلة ناجعة لما يمكن أن يصدر من الإنســان المسلم مــن عداء وظلم تجاه العباد. وأشــار إلى أمر خفي مهم لا يكاد ينتبه إليه الكثــير من الناس، وهو أن المعاند الذي ينحاز إلى رأيه وجماعتــه يروم التفــوق على خصمه حتى في أعمــال البر التي يزاولهــا. فلا يوفَّق توفيقا كامــلا إلى عمل خالص لوجه الله. ثم إنــه لا يوفق أيضا إلى العدالة، إذ يرجــح الموالين لرأيه الموافقين لــه في أحكامه ومعاملاته على غيرهم. وهكذا يَضيع أساســان مهمان لبنــاء البر: "الإخــلاص والعدالة" بالخصــام والعداء.

وبهذه المقارنة الشــمولية استطاع أن يؤسس لنا تصورا رفيعا لبناء علاقة اجتماعية تســودها المحبة والسلام والألفة والأخوة، تكون هي الســقف التربوي التي تعول عليها البشــرية -بما فيها الأمة الإسلامية- لتحيا في أمن وطمأنينة وسلام.

حقيقة التعارف بين الشعوب

أورد النورسي الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُــعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(الحجرات:١٣)، واتخذها سقفا معرفيا لتصوره لحقيقة التعارف بين الشعوب كما هو وارد في الشــريعة الإسلامية السمحة، وشبه المجتمع الإسلامي بقبائله وطوائفه بجيش مقســم إلى فيالق وفرق وألوية وأفواج وســرايا وفصائــل وحظائر، ومــا هذا التقســيم إلا ليَعرف كل جندي واجباته حسب تلك العلاقة المختلفة المتعددة من جهة، ولتصان حياتهم من هجوم الأعداء من جهة ثانية.

الإجراءات التربوية والإيمانية للتعايش السلمي

حدد الأســتاذ لتطبيق التعايش السلمي بين الناس في مجموعة من الضوابط والمعــالم التربوية والإيمانية ذات النفع الكبير على الفرد والمجتمع، نجمل بعضها فيما يلي:

أ–الإيمان: اعتبر الأســتاذ الإيمان أسمــى غاية للخلق وأعظم نتيجة للفطرة، وأفضل مقام للبشرية. ومن هنا دعا رحمه الله الناس إلى معرفة الله ﷻ والإيمان به، لأن هذا من شــأنه أن يريحهم من العنت والضنك الذي يعيشونه في حياتهم الخاصة والعامة، ويجعل المجتمعات البشرية تعرف أنواع السعادة الحقة والسرور الخالص،

فتعيش في أمن وأمان واستقرار تحت رحمة الخالق سبحانه.

وأكد على أن كل من عرف الله تعالى حق المعرفة، وملأ قلبه من نور محبته، سيكون أهلا لسعادة لا تنتهي ولنعمة لا تنضُب ولأنوار وأسرار لا تنفد، وسينالها إما فعلا وواقعا أو استعدادا وقابلية.

ب-الإخلاص: اعتنى الأستاذ في رسائله بالإخلاص أيما عناية، اعتقادا منه أن فيه أنوارا مشعة وقوى رصينة كثيرة من شأنها أن توثق عرى المحبة والأخوة بين الناس.

ونظرا لأهمية الإخلاص في حياة الإنسان، جعل له الأستاذ أربعة دساتير اتخذت صفة توجيهات تربوية لعموم المسلمين، نجملها كالآتي:

- ابتغاء مرضاة الله في العمل، فإذا رضي هو سبحانه فلا قيمة لإعراض العالم أجمع ولا أهمية له.
- عدم انتقاد من يعمل في هذه الخدمة القرآنية، وعدم إثارة نوازع الغبطة بالتفاخر والاستعلاء.
- القوة في الحق والإخلاص، حتى إن أهل الباطل يحرزون القوة لِما يبدون من ثبات وإخلاص في باطلهم.
- الافتخار -مع الشكر- بمزايا الإخوان، وتصورها في الأنفس.

جـ-الأخوّة: تحدث الأستاذ عن الأخوّة واعتبرها دستورا جميلا يجب الاعتماد عليه لتجاوز الكثير من المشاكل والعراقيل بين الناس، وهو ينبثق من الدستور الإلهي: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(الحجرات:١٠).

والذي يميز مفهومه للأخوّة عن غيره من العلماء هو استخدامه لتعبير دال عن المعنى العميق للأخوة، وذلكم هو اصطلاحه "الفناء في الإخوان" أي أن يفنى كل في الآخر، "بأن ينسى كل أخ حسياته النفسانية ويعيش -فكرا- مع مزايا إخوانه وفضائلهم. حيث إن أساس مسلكنا ومنهجنا هو "الأخوّة في الله"، وإن العلاقات التي تربطنا هي الأخوة الحقيقية، وليست علاقة الأب مع الابن ولا علاقة الشيخ مع المريد. وإن كان لابد فمجرد العلاقة بالأستاذ. وما دام مسلكنا هو "الخليلية" فمشربنا إذن "الخلة". والخلة تقتضي صديقا صدوقا ورفيقا مضحيا وأخا شهما غيورا. وأسُّ الأساس لهذه الخلة هو "الإخلاص التام". فمن يقصّر منكم فيه فقد هوى من على برج الخلة العالي، ولربما يتردى في واد سحيق، إذ لا موضع في المنتصف".

د-المحبة: وهي ركن أساس في العلاقة الاجتماعية بين الناس، ولا يمكن تصور مجتمع يعيش في أمن واطمئنان دون الحديث عن المحبة التي تعمر قلوب أصحابه ونفوسهم. ولهذا أَولاها أهمية خاصة في رسائله النورانية، واتخذ منها نبراسا يَهتدي بنوره طلابُه والإنسانية جمعاء. ولا غرابة أن نجده يعتبر المحبة سر الوجود والكائنات، وأضفى عليها مسحة تربوية رفيعة، حيث ربط بينها وبين القصد منها، فإن كانت محبةً لله دامت واتصلت وآتت أكلها في الدنيا والآخرة، وإن كانت لغير ذلك فهي غير نافعة ولا أثر لها.

ومن هنا فإنه تحدث عن المحبة في جميع علاقات الإنسان الاجتماعية، ووثقها بخيط نوراني رفيع يتصل بالخالق ﷻ، فأكد على أن محبة هذا الإنسان للوالدين واحترامهما، إنما يعودان إلى محبته لله سبحانه؛ إذ هو الذي غرس فيهما الرحمة والشفقة حتى قاما برعايته وتربيته بكل رحمة وحكمة. وعلامة كونها محبة لوجه الله تعالى هي المبالغة في محبتهما واحترامهما عندما يبلغان الكبر ولا يبقى له فيهما من مطمع.

أما محبة الأولاد فهي كذلك محبة لله تعالى وتعود إليه، وذلك بالقيام برعايتهم بكمال الشفقة والرحمة بكونهم هبة من الرحيم الكريم. ثم إن محبة الزوجة وهي رفيقة الحياة، فعلى الإنسان أن يحبها على أنها هدية أنيسة لطيفة من هدايا الرحمة الإلهية. وعليه أن لا يربط محبته لها برباط الجمال الظاهري السريع الزوال، بل يوثقها بالجمال الذي لا يزول، بل يزدادُ تألقا يوما بعد يوم، وهو جمال الأخلاق والسيرة الطيبة المنغرزة في أنوثتها ورقّتها. والحياة أيضا التي وهبها الله ﷻ للإنسان هي رأس مال عظيم يستطيع أن يكسب به الحياة الأخروية الباقية. من هنا فالمحافظة عليها ومحبتها من هذه الزاوية، وتسخيرها في سبيل المولى ﷻ تعود إلى الله سبحانه أيضا. وهكذا فإن جميع ما ذكرناه من أنواع المحبة، إن وُجهت الوجهةَ الصائبة، أي عندما تكون لله وفي سبيله، فإنها تورث لذة حقيقية بلا ألم، وتكون وصالا حقا بلا زوال، بل تزيد محبة الله ﷻ، فضلا عن أنها محبة مشروعة وشكر لله في اللذة نفسها، وفكر في آلائه في المحبة عينها.

هـ-الصدق: اعتبره الأستاذ حجر الزاوية في الحياة الاجتماعية للإنسان، وبه يداوي أمراضه المعنوية. وأكد على أن

الكذب من قبيل المداهنة والتصنع دنيء ومرفوض، فاختلط الحق بالباطل، وتاه الناس عن سبيل الله المستقيم، فاختلطت كمالات البشرية بسفاسفها ونقائصها، وعمت المجتمعات البشرية فوضى واضطرابات عذبت الإنسانية عذابا شديدا في روحها ونفسها وقلبها.

و–الأمل واستشراف المستقبل: نظر الأستاذ إلى الإنسان نظرة جامعة تخرجه من ضيق الدنيا إلى سعتها وسعة الآخرة، وأكد على أن مقام الإنسان الراقي بسجاياه السامية لا يتحقق إلا إذا تجاوز حاضره الضيق الذي يجعله في علاقة اجتماعية محدودة الأثر والنتائج، فلا يرقى أبدا إلى مرتبة الصدق في الوفاء، ولا إلى مكانة الإخلاص في الصداقة، ولا إلى درجة الود في المحبة، ولا إلى الاحترام المبرأ من الغرض في الخدمة.

ومن هنا تأتي دعوة الأستاذ الإنسانَ إلى تغيير منطق تعامله مع محيطه الاجتماعي بأمل كبير واستشراف مستقبليّ من نوع فريد وخاص، أجمَله –رحمه الله– في كلمتين اثنتين: "الإيمان بالآخرة". هذا الإيمان الذي يعتبر إكسيرَ حياةِ البشر، وما إن يأتي "الإيمان بالآخرة" إلى هذا الإنسان لينقذه ويمده ويغيثه، حتى يحوّل ذلك الزمن الضيق –الشبيه بالقبر– إلى زمان فسيح واسع جدا بحيث يستوعب الماضي والمستقبل معا، ولا يجعل هذه الدائرة الحياتية الواسعة الفسيحة –وما فيها من علاقات وخدمات مهمة– وسيلة لأمور تافهة دنيوية ولا لأغراضها الجزئية ومنافعها الزهيدة.■

(*) جامعة الحسن الثاني / المغرب.

المصادر

(1) لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت ١٩٩٤.

(2) الكلمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(3) الشعاعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(4) اللمعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(5) المكتوبات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.



على صعيد الدنيا كان ﷺ يدرج، غير أنها لم تستطع أن تحجب بصيرته عن جلال الأزل والأبد، يا لَقَلبه العظيم! برب الزمان والمكان كان معلَّقاً، وبين الخلق والخالق يروح ويغدو؛ جائعاً يظلُّ ليشبَع الآخرون، فقيراً يبقى ليغنىَ المعدِمون.

***

الأسوة الحسنة

ودورها في التربية الناجحة

أ.د. هارون أوجي*

مهما يكن لدى المرء من قدرات ومواهب وأساليب يستثمرها لتربية ذاته وتزكيتها، فإنه لا يستغني عن وجود قدوة من بني جنسه تكون له نبراسا في سيره إلى ربه. فعليه أن يحرص على اختيار شخص استجمع قدرا كبيرا من الفضل والتقوى يكون قدوة له في أمور الخير والهدى ويرجع إليه في السراء والضراء مستفيدا من رأيه ومشورته فيما يلم به من أحداث ومواقف. فللقدوة تأثير كبير في تكوين شخصية الفرد وصقلها حيث إن الإنسان ميال بطبعه إلى التقليد والمحاكاة، وفي التربية الإسلامية يتحول هذا التقليد ويرتقي إلى مفهوم راق يطلق عليه "الاتباع"، وأرقى هذا الاتباع ما كان على بصيرة. يقول الحق ﷻ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٨). فالاتباع عملية فكرية يمزج فيها بين الوعي والانتماء والمحاكاة والاعتزاز في ظل البصيرة والحجة.

القدوة وإحراز الأهداف

نعم، هنالك الكثير من الأفكار والطموحات -بدءا بالأعمال اليومية والمشاريع العادية، وصولا إلى الأهداف السامية والمطالب العالية- لاقينا دون تحقيقها عراقيل وصعوبات، وفشلنا في إكمالها، بل منها ما لم نتجاوز بها مرحلة التصور والخيال.

ومع أن عديدا من العوامل لها تأثير مباشر في تحقيق الأهداف، لكن لا مـراء في أن أقرب الطرق وأسلمها للوصول إليها هو اتخـاذ قدوة صالحة، والاحتذاء بحذوه، والاسـتفادة من تجاربه، والاستنارة بمعارفه. وإذا كان هناك من يستطيع أن يكون سعيدا حتى في الظروف القاسية، فإن بإمكاننا أن نكون سعداء مثله بمجرد التعرف على إستراتيجيته في كيفية النظر إلى الأشياء والأحداث. والذي يسـتطيع أن ينهض من نومه مبكرا نشيطا مفعما بالطاقة والحيوية، فإنما يتيسـر له ذلك بفضل أعمال وتصرفات يقوم بها. فمتابعة أمثال هؤلاء قد تؤدي بنا إلى نفس النتيجة التي وصلوا إليها.

والحقيقة أننـا في مراحل مختلفة من حياتنا نسـتلهم العديدَ من الأشـخاص، فتكون في طريقة تفكيرنا وتصوراتنا وتصرفاتنا بصمات واضحة منهم على قدر علاقتنا بهم. فلا غرو أن يبرز في ملامح شخصيتنا أمور تلقيناها من أبينا أو أمنا أو كليهما أو من مدرسنا أو من شخص تقي ورع متدين. ففي كل موقف تطفو على السطح تجربة تلقيناها من أحد هؤلاء، مما ينم عن مدى تأثرنا به واستفادتنا منه. فحق ما قيل: "المرء ابن بيئته وخلاصة تجاربه".

ومن جانـب آخر نجد في مجتمعاتنا مـن انحرف، فعاش في بداية أمره تجارب تافهة وسلبية، ولكنه ثاب –أخيرا– إلى رشده وبحث عن مرشد يعِينه على تسـوية وضعه وإصلاح أمره، وفي نهايـة المطاف فاز به فعلا. علما بأن في أوضاع الناس –صالحهم وطالحهم– دروسا وعبرا يستخرجها الكيس الفطن.

الإنسان مجبول على التأسي

والحقيقة أننا نتأسـى دائما في مختلف مراحـل حياتنا؛ فالطفل يقوم بالاقتداء بالكبار باعتبارهم مثله الأعلى، ويبدأ باكتسـاب العادات والتقاليد والملكات من خلال ما يسـمعه ويلاحظه من أقـوال وحركات وانفعالات. فيندفع برغبة خفية لا يشـعر بها نحو محاكاة من يعجب به في لهجة الحديث أو أسـلوب الحركة والمعاملة. والتلميذ يتدرب على الصنعة بالتأسي بالأستاذ والمعلم. وأنتم إذا كنتم لا تتقنون النطق بألفاظ، فعليكم التأسي بأشخاص يتقنونها، فقد تكونون مثلهم في غضون وقت قصير للغاية. فالذي يقلد خطيبا مفوها بصوته وإيقاعاته ونبراته يبدأ شـيئا فشـيئا بالإحسـاس بالثقة بالنفس. ومن أراد الاستفادة من الأحاسيس القوية والمشاعر الجياشـة التي يتمتع بها، فعليه أن يبدأ بالأمر من محاكاة أحد الذين يعجب بهم. وإذا كنتم تعرفون أناسا يحسنون الاتصال والتعامل مع أولادهم فبإمكانكم متابعتهم والاسـتفادة من تجربتهم. فنحن نسـتطيع التشبه بمن نعجب به بالاحتذاء به؛ بأن نؤمن مثله ونفكر على طرازه ونتكلم بسـليقته ونثابر على شاكلته ونتخلق بأخلاقه.

نعم، لا مـراء في أن بعض المهام معقدة ومتشـابكة بحيث يستغرق التأسـي والاقتداء بمن يحسنونها والقيام بمثل ما قاموا به وقتا طويلا، إلا أنه إذا كان لدى الإنسان الذي يريد التأسي من العزيمة والإيمان ما يسند هذه الإرادة ويدعمها فإنه سيحقق ذلك إن عاجلا أو آجلا.

إن التأسـي أسرع من طريقة التجربة والخطأ في الوصول إلى الهدف المطلـوب، فرب أعمال وإنجازات صرف عليها أصحابها عمرا ثمينا ومبالغ باهظة، يسـتطيع الإنسـان أن يحققها في زمن قصير جدا، وذلك بالمتابعة الحثيثة والتأسي الفعال والسير في نفس الطريق الذي سلكوه.

واليابانيون هم أكبر المقلدين في العالم، فالسـر الذي يكمن وراء النجاح الباهر لاقتصاد اليابان ليس هو الاختراعات الفريدة، بـل إنهم يبدؤون من العمل بأخذ المنتجات والأفكار من شـتى الجهات وعلى نطاق واسـع، سـواء في مجال قطاع السيارات وأَنصـاف الموصِلات أو غيرها، وبتصميـم دقيق يحافظون على العناصر المهمة في تلك الأفـكار والمنتجات ويطوّرون الجوانب الأخرى. صحيح أنه لابد من بـذل الجهد لاختراعات جديدة وكشوفات مبتكرة، ولكن لا يعني ذلك أننا سنضرب صفحا عمّا تم اختراعه، وسنحاول كشفه من جديد.

ولابد للإنسـان من القدوة الصالحة في أمور معاشه وحياته الدنيوية لكي يعيش حياة مثالية؛ فالإنسـان الذي ليس له قدوة صالحة لن يهتدي إلى الصواب في الحقيقة، ولن يكون على بصيرة من أمـره وواثقاً من كونه على الحق والصـواب، ولن يتفلت من الوساوس والشكوك حول الوصول إلى أهدافه؛ فمثله كمثل سفينة في خضم بحر محيط تمخر بدون بوصلة، فلا غرو أنها ستتيه بين ألف وجهة ووجهة. فهكذا الحياة؛ عروقها متشعبة وأساليبها متنوعة يحتاج سالكها إلى مرشد رشيد.

الرسول ﷺ قدوة القدوات

فنحـن في علاقاتنا مـع أولادنا وأبوينا وأزواجنـا، وفي مأكلنا ومشربنا وعباداتنا ودعواتنا وسـائر أعمالنا أحرار، نستطيع أن

نتصرف كما نشاء. وبذلك قد نسمو إلى العلا وقد نهبط إلى الحضيض، ونحسن أو نسيء. ولكن علينا أن لا ننسى أن الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم لم يتركه سدى، و لم يدَعْه بدون أسوة، سائبا يسرح ويمرح في الحياة من دون هاد أمين، بل هداه بالقرآن إلى الأسوة الحسنة، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾(الأحزاب:٢١) و﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(آل عمران:٣١) . فهاتان الآيتان وغيرهما تشير إلى أن الطريق الآمن والدرب الموصل إلى المطالب إنما هو اتخاذ القدوة الصالحة واتباع الأسوة الحسنة. وهل هناك طريق أسلم من التأسي بسيدنا محمد ﷺ الذي اتفق الصديق والعدو على أنه كان في قمة الأخلاق الحسنة.

وفي شخصية الرسول ﷺ وسيرته يجد المرء الأسوة الحسنة في حياته كلها؛ فهو إنسان أكرمه الله ﷻ برسالته، وسيرته شاملة لكل النواحي الإنسانية في الإنسان، فهو الشاب الأمين قبل البعثة والتاجر الصادق، وهو الباذل لكل طاقته في تبليغ دعوة ربه، وهو الأب الرحيم والزوج المحبوب والقائد المحنك والصديق المخلص والمربي المرشد والحاكم العادل. كما أنه ﷺ ضرب المثل الأعلى في تربية الذات من جميع النواحي سواء في عبادته أو زهده أو خلقه الكريم أو غير ذلك. والمتأمل لسيرته يجد الحل الأمثل لكل المعضلات التي تقف حائلا دون إشعاع الروح وبلوغ صفائها ونقائها.

فقد ولد ﷺ وبزغت شمسه في عصر مظلم محلولك تراكمت فيه العقائد الزائفة والمشاكل الاجتماعية؛ فكان الناس يعبدون الشجر والحجر، والشمس والقمر، حتى إن بعضهم كان يصنع من المأكولات مثل الحلوى والجبن صنما، فإذا جاع عاد ليأكله. وكان أحدهم إذا بُشّر بالأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾(النحل:٥٨-٥٩)، وكانت الأخلاق الرذيلة والأفعال الشنيعة -مثل الزنا والميسر وتعاطي الخمور والتعامل بالربا- كأنها تصرفات عادية في المجتمع. ولكنه ﷺ استطاع في زمن قصير أن يقضي عليها كلها، ويرسي بدلا عنها فكرةَ أن غاية خلق الإنسان هو التعرف إلى الله والقيام بالعبودية له، فعلّم الناس وربّاهم على سبل العيش المتوازن بعيدا عن الإفراط والتفريط، وإخلاص الأعمال لله تعالى، وملازمة الصدق، والوفاء بالعهود، وعدم الخيانة عند الائتمان، والشفقة على الأهل، والرفق بالنساء. وأرشدهم إلى العدل والتواضع والسخاء والمعروف والبر والحلم والصبر.

فالذين أحبوه واتبعوا مبادئه واقتدوا به واتخذوه أسوة في ذلك العصر، بنوا حضارة إنسانية يتمتع فيها الإنسان بإنسانيته ويحس بكرامته.. حضارة أحرزوا فيها شأوا أعلى لم تبلغ إليه حضارة بعدهم حتى الآن. ومن بعد ذلك أنشئت عشرات من الدول على خطى النظام الذي جاء به مثل الدولة الأموية والعباسية والسلجوقية والقره خانية والعثمانية. وكم نشأ وترعرع في ظل تلك الدول علماء دهاة اهتدوا بهديه ﷺ وسبقوا عصورهم وألقوا بضيائهم إلى أيامنا هذه، وأبطالُ روح عاشوا في أبعادٍ ماورائية، وأدباء مصاقع وأساتذة بيان.

فها هم سادتنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة وعقبة بن نافع رضي الله عنهم وطارق بن زياد والإمام أبو يوسف ومحمد بن الحسن والجابري وابن سينا وابن بطوطة والخوارزمي وجلال الدين الرومي والإمام الرباني وبديع الزمان سعيد النورسي رحمهم الله تعالى وغيرهم ممن تركوا بصمات واضحة على عصورهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

ولقد علمنا التاريخ أن الذي سما بهؤلاء الدول والأشخاص وحلق بهم في الذرى إنما هو اتخاذهم الحبيب المصطفى ﷺ أسوة يحتذى به من كل الوجوه، وقدوة يؤتم به من كل النواحي.

القدوة الصالحة وقصة نجاح

طالب في مقتبل العمر، لا يتلقى من أسرته أيّ دعم مادي أو معنوي. وما إن ناهز سنه الرابع عشر حتى اضطر إلى العمل والدراسة معا. وأخيرا حصل على عمل في جريدة، ودخل الجامعة، فواصل مدير تحرير الجريدة مساعدته ومساندته أثناء دراسته الجامعية، مما أدى بالطالب الشاب أن يقول في قابل أيامه: "لقد تعلمت من تصرف مديري أن أمد يد العون إلى الآخرين، وأن أفسح المجال لغيري كي يستفيد من الفرص التي أتيحت لي".

وبعد أن تخرّج الشاب من الجامعة بدأ بالعمل في مؤسسة. فكان من مبادئ مدير المؤسسة أنه يطلب من العاملين أن ينجزوا كل مهمة في يومها، وأن يُجروا الاتصالات الهاتفية ويردوا على الرسائل في نفس اليوم. وكان -مع ذلك- يعامل كل أحد بظرافة

عالية أيا كان مستواه الاجتماعي، لا يميز في ذلك بين شخص عادي لا يتمتع بأي صلاحية أو منصب أو شبكة علاقات، وبين شخص ذي منصب رفيع من وزير أو سفير أو غيرهما. وكان الشاب يراقب هذا المدير ويتابع تصرفاته، فيتعلم من أسلوبه كيفية تأسيس العلاقات الطيبة مع الآخرين والوصولِ إلى المستوى المطلوب في إنجاز المهام وإحراز النجاح.

وبعد فترة عُيّن الشاب محررا للمجلة، ومن بعد ذلك مديرا للنشر. وكان صاحب الجريدة من النوع الذي يستهدف في مشاريعه الربح، وكان يطمح دائما في كل عمل يقوم به الوصولَ إلى المستوى الأمثل وغير العادي، سواء كان مسابقة رياضية أو نشاطا تجاريا أو غير ذلك. فهذه الطبيعة التنافسية أثرت في المدير الشاب تأثيرا بالغا، وبهذه الروح والعزيمة وأسلوب الإدارة الرشيدة وعقلية الطموح إلى الأمثل قفزت جريدته إلى الدرجة الأولى في البلد سواء من ناحية المبيعات أو النوعية. وحينما يتحدث الشاب عن أيامه تلك كان يقول: "لقد كنت محظوظا للغاية لأنني كنت برفقة أناس يقدّرون الإنسان وجهده وإنجازاته...".

فهذا الرجل هو "توم جونسون" (Tom Johnson) الذي أدار قناة (CNN) سنة ١٩٩٠، والتي كانت تواصل بثها الحي المباشر ٢٤ ساعة، وكانت تشاهَد من ١٣٠ دولة. وفي غضون ست سنوات من المدة التي ترأسها "توم جونسون" أصبحت تشاهَد من ٢٠٨ دولة.

فـ"توم جونسون" القائل: "بإمكانك التعلم من كل من تلاقيه" هو الذي يقول بدوره: "لقد تعلمت مقابلة الإحسان بالإحسان من "بيتون" (Peyton)، وأهمية الاستفادة من كل يوم يمر بي، وجدوى الحرص على النوعية الجيدة من "بيل" (Bill) و"ليندن جونسون" (LBJ)، وتعلمت من "تيد" (Ted) و"أوتيس" (Otis) أن الفوز إنما يتوفر برفع المستوى وتجنُّب الغش، وأن الحفاظ على الجودة يحقق نجاحات مذهلة.." نعم، إنه استطاع أن يقول هذا كله لأنه كان إنسانا عاقلا يقدّر مواهب الآخرين ويبذل جهدا جهيدا في سبيل الاستفادة من قدراتهم وتجاربهم. وما فعله وحققه جونسون ليس شيئا جديدا وغريبا، بل إنما وصل إلى ما وصل إليه بالتأسي والقدوة الحسنة.

مَن طلب القدوة وجدها

الحاصل أن الإنسان ميال بطبعه وغريزته إلى الاقتداء بالآخرين، فهو بميزته هذه يتمكن من الوصول إلى أهدافه والحصول على طموحاته، وهذا النوع من الاقتداء يلبي رغبة فطرية موجودة لدى الإنسان الذي يتطلع إلى تحقيق ما وصل إليه أولئك الأفذاذ أو يزيد. وبالمقابل إن وقع في شباك الجهل والغرور وفخهما، وتغاضى عما أحرزه غيره من الإنجازات والنجاحات، ولم يراجع حساباته ويقيّم وضعه في مجال النجاحات والإخفاقات، فسيحرم قطعا من هذه الطاقة الكامنة في كيانه، ويقع في كوارث لا تحمد عقباها لا سمح الله!

فإذا كان لدى الفرد ميل إلى نوع من أنواع النبوغ كالعلم أو العبادة أو التخصص في أي علم من العلوم، فيحتاج أن يكون أمامه مثل بارز في هذا المجال يسير على خطاه ويقتفي آثاره. علما بأن عالم الإنسانية في غاية الثراء من ناحية توافر القدوات الحسنة في النواحي المعنوية والمادية، وإذا تلفّت المرء يمنة ويسرة واستعرض أمام مخيلته أساتذته الذين تتلمذ عليهم في إحدى المؤسسات التربوية أو التعليمية فلا شك أنه سيجد بغيته، ولربما تكون هذه القدوة من العلماء العاملين البارزين في المجتمع ممن يبعد آلاف الأميال، ومع ذلك يسهل الاتصال بهم والغَرْف من معينهم للاستفادة من علومهم وجهودهم وتجاربهم التربوية والروحية، فيوفر على نفسه كثيرا من الوقت والجهد في سبيل البحث عن الأفضل والأصلح لذاته. بل يزيده ذلك تمسكا بتعاليم دينه وقيمه، فيجاهد نفسه في ذلك لأنه يرى إمكانية تطبيق تلك التعاليم في أرض الواقع.

فإذا سار على الدرب الذي فتحوه وعبّدوه فسيرى بعين اليقين كيف تتوالى النجاحات والنتائج الباهرة الحميدة.

وخير مثال على ذلك هو الأثر الكبير الذي مثلته القدوة في نشر الإسلام في كثير من أصقاع الدنيا بواسطة تلك النماذج المتحركة التي دعت إلى الإسلام بأفعالها قبل أقوالها، فاستقطبت ملايين من البشر دخلوا في دين الله دونما فتح ولا جهاد. تلك النماذج تمثلت في أعداد ليست بالكثيرة من التجار المسلمين والزوار الذين أدخلوا بسيرهم وتمسكهم بتعاليم دينهم كل هذه الأعداد إلى الإسلام.■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أجير جمال الدين أشيوق.





حدائق النور

أ.د. حسن الأمراني*

أزف الرحيـل بنـا، فأيـن نُقـاد   وعلـى الطريـق مفـاوزٌ ووهـاد؟
طـال السُّـرى والنجم أظلـمَ نورُه   والصـبُّ قـرّح جفنـه التسـهاد
لكأنـي أبصـرت طيفـك راحـلا   وتَفـرّق الأحبـابُ والعـوّاد
وبقيتَ وحـدك، لا تـرى إلا الذي   زرعـتْ يـداكَ وقـد تـلاهُ حصاد
طرقتْـك صائـدةُ الهـوى فتبعتَهـا   مـن حيـث تحسَـب أنـك الصياد
وغـزا عذارَيـكَ البيـاضُ وإنـه   -لـو كنتَ تعلم- حسـرة وسـواد
هـلا بذلـت مـن الفضائل مـا به   يبيـضّ في يـوم الحسـاب مـداد؟
ويـحَ النوى! ما للنـوى تُذكي الهوى   ولقـد يقـال: من الـدوا التسـآد
إن الهـوى يُـردي، ولـو سـيّجته   بالصالحـات وقـاك منـه رشـاد
شـدّ الغريـبُ رحالَـه فتنكـرت   لـه أمـة يـا -ويحـه- وبـلاد
أبُـنيّ، خـذ عنّـي وصية مَن سـعى   فتقطّعـتْ مِـن خلفـه الأكبـاد
المجـدُ شـرّده وبـدّد شملـه   ولكَـم تُشـرّد ماجـداً أمجـاد



مـا كان يحسب للبِعاد أظافرا   مسنونةً حتى رماه بِعاد

سيظل هذا السيفُ يأكل غمدَه   حتى يحُلّ بساحتَيه مَعاد

قد يخطئ القصدَ الفتى ولَربما   مِن قبل غايته يَزِلّ جواد

لا كأسَ أعذبُ –لو بَصُرتَ– مِن التقى   فبها يَطيب الورد والورَّاد

انظر وراءك، هل تَحقَّق بالذي   أنفقتَ من زهر الشباب مرادُ

انظر وراءك ليس من غضبٍ، فما   يَنسابُ نهرٌ ما له إمدادُ

منَّيت نفسك بالذي يهفو له الـ   عشاقُ إنْ سجنُ الخَليّ رقاد

منَّيت نفسك بالجهاد ولم يكن   لك أنتَ غير الأُمْنِيَات عَتاد

منَّيت نفسك بالوصال وهل جرتْ   يوماً على درْب الغريب جِياد؟

وسمعت صوتا في الضُّلوع مجلجِلا   ويكاد منه يستغيث فؤاد:

البندقيةُ زهرةٌ فوّاحةٌ   إنْ عمَّ هذا العالمين فَسَاد

هيهات، دربُك مقفرٌ، والخيلُ قد   عبرتْ، وليل الطالبين سُهاد

حجبَتْك عن آلائه نفسٌ غوَتْ   وتعلقتْ بالنجم وَهْوَ رماد

كُشِف الغطاءُ وأبصرتْ عيناك ما   يُزْري، لقد ملأ الرياضَ قَتاد

ولقد بلَوتُ الدهرَ حتى خِلته   قد صار وَهْو لرغبتي ينقاد

ثم انتبهتُ فلم أجد إلا منًى   لا عينَ تُسعدُها ولا أَوراد

وَهَجٌ دعا قلبي فلمّا جئتُه   سدّتْ عليّ طريقيَ الأسداد

فبمن ألوذ؟ ومن يجير سِوى الذي   سوّى، وزادُ الله نعْم الزاد؟

النورُ دونك، فاغترف يا سالكا   درب الأحبة، والنعيمُ مِهاد



(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.



أحنوا أصلابكم، واجمعوا شتاتكم، وقفوا في حضرة المصطفى ﷺ الذي أعطى الدنيا كلَّ شيء ولم يأخذ منها شيئا، وأشعل ضوءا في قلب الضياع الإنساني الحزين.

* * *

أنا أنف عبد الله



أ.د. عرفان يلماز*

عزيزي عبد الله... لا تنس أن الله تعالى الذي خلق الكون وكل ما فيه قد أعطى صفات مختلفة لجميع الأشياء كاللون والشكل والصوت والصلابة والنعومة والحرارة والبرودة والرائحة والطعم لكي يمكن تمييز الأشياء بعضها عن بعض. ولكي تستطيع معرفة هذه الصفات فقد وضع في جسدك حواس تدرك بها الأشياء. فأنت تميز وتعرف الضوء بعينيك، والموجات الصوتية بأذنيك. وهذه الحواس بدقتها وفنها الراقي تفصح عن تجليات الأسماء الحسنى عليها وتكون ترجمانا للخالق. واليوم أقول لك بأنني عضو مخلوق لحاسة شم روائح المواد. ويتجلى فيّ فن متميز وخارق من الصنعة والخلق. وأنا أُعرّفك بنفسي لكي يتجلى لك من زاوية أخرى علمُ ربنا تعالى وقدرتُه.

لقد وضعني الله تعالى في أنسب مكان في وجهك إلى درجة أنه لو تغير مكاني قليلا أو جرحت أو تعرضت لأي ضرر، تشوّه منظر وجهك وقبُح. فكأنه تعالى خلقني بعد أن خلق وجهك وجسدك، وجعلني في أفضل وضع متلائم معهما، بل حتى مع روحك.

أشكال الأنوف

ومع أن لي مظاهر جانبية بأعداد لا تحصى إلا أن شكلي في الغالب هو إما دقيق وطويل أو ضيق أو واسع ومفلطح أو مقوس، بطرف مدبب أو غير مدبب، والعلماء القدامى الذين عملوا في ساحة "علم السيما" أي الذين كانوا يحكمون على خُلق الشخص وطبيعته ومزاجه وذكائه من دراسة تقاطيع وجهه، كانوا يهتمون بشكلي كثيرا ويعقدون الصلة بينه وبين مزاجه وطبيعة روحه. ولكني أرى أنه من الخطأ إصدار حكم على أي شخص بالتفرس في شكلي، لأن هناك أشكال أعضاء أخرى، كما أن للتربية والتعليم أثرا مهمّا في تشكيل شخصية ومواصفات الإنسان. لذا أرى ألا تبدي رأيك حول أي شخص انطلاقا من شكل أنفه فقط.

فن الخَلق البديع

والحقيقة أن ما أريد ذكره هنا يتعلق بالفن الراقي لخلقي وحكمة وجودي. فسأتكلم عن أشياء موضوعية وليست عن أشياء ذاتية وغير موضوعية. و لم يضعني الخالق في القسم الأمامي من وجهك فقط، بل وضعني في القسم الأمامي لوجوه جميع الحيوانات الفقرية ولاسيما الحيوانات الثديية. لأنها تستخدمني من أجل الحصول على غذائها وإشباع بطنها وفي العثور على صغارها أو زوجها. فأنا أكثر الأعضاء استعمالا من قِبَلها. لذا فقد وُضعتُ أمام الوجه لأعمل كآلة كاشفة وحساسة في تعقب الروائح. والحيوانات عندما تعثر على شيء تقوم أوّلا بدسي في ذلك الشيء أو بالقرب منه لفهم ماهيته. لذا شاع في الناس استعمال تعبيرِ "يدس أنفه

في كل شيء". وحاسة الشم لدى معظم الحيوانات أقوى مما هي موجودة عند الإنسان. ونظرا لقلة العقل والشعور لديها فهي تحصل بواسطة أنوفها على الكثير من المعلومات التي تحتاج إليها. ولما كان الإنسان يملك عقلا وشعورا فلا يضطر إلى أن "يدس أنفه في كل شيء". ولكن هذا لا يعني أن الإنسان لا يحتاج إليّ، أو أنني عضو زائد لا ضرورة ولا حاجة إليّ. على العكس، فأنا عضو مهم ولي العديد من المهام، ولي بنية خُلقتْ بحكمة بالغة.

البروز اللحمي الذي أشكّله في وسط الوجه يسهُل تغيير شكله بالضغط عليه، لأن مسنده غضروفي. وقسمي النهائي مدبب، ويوجد جناحان في جانبيّ. أما نهايتي من الطرف الثاني فتقع بين العينين تماما ويرتبط قسمي الغضروفي هنا بالعظم الأنفي الذي هو جزء من عظم القحف حيث يشكل سندا قويا لي. يقوم الغضروف الموجود في وسطي بتقسيم تجويفي إلى قناتين تنتهيان بثقبين إلى الخارج. والحنك الصلب الموجود في أسفلي أي في قاعدتي يشكل في الوقت نفسه سقف تجويف الفم. أما الجسم اللين من الحنك الموجود وراءه فيمتد حتى أقرب منطقة للبلعوم مني أي إلى البلعوم الأنفي والذي يرتفع إلى فوق عند البلع ليسد القسم العلوي من البلعوم لمنع الطعام واللعاب من التجمع في قسمي الخلفي. وعندما تأكل تغص أحيانا بالطعام فتسعل فلا ينسد هذا الغطاء فأمتلئ بالطعام الذي أكلته ويخرج من ثُقبَيّ. والفائدة الأخرى من هذه المنظومة هي أنه في بعض حالات العمليات التي تُجرى على المرضى وعندما يكون طريق الفم مسدودا يتم إدخال الهواء والغذاء بأنبوب مطاطي عن طريقي إلى المريض.

الأنف وعملية التنفس

يتم عن طريقي وصول الهواء إلى رئتيك أي في عملية التنفس التي هي عملية ضرورية لإدامة حياتك. فالهواء الذي يدخل من ثقبيّ لا يكون على الدوام نظيفا وملائما لرئتيك. فإن وصل إليهما هواء غير ملائم فسرعان ما يصيبهما البرد فالالتهاب، فتمرض. ولكي لا تواجه مثل هذه الأمور السيئة فقد وضع الخالق الرحيم العالم بكل شيء والمدبر له شعيراتٍ في مقدمتي لتصفية الهواء، وغشاءا مخاطيا رطبا يغطي سطح قسمي الخلفي.

والحقيقة أن بنية التجويف الداخلي لي معقدة، إذ توجد ثلاثة بروزات على جداريّ الخارجيين تمتد بطولهما من الأمام إلى الخلف. وهذه البروزات يطلق على كل منها اسم "القُرَين" (القُرين السفلي، القرين المتوسط، والقُرين العلوي). والبنية المتعرجة لكل قُرين تساعد على توسيع مساحة سطحي الداخلي فيسهل بذلك ترطيب وتدفئة الهواء الداخل إلى الرئتين، ولا يذهب الهواء إلى رئتيك مباشرة في أثناء التنفس. فبواسطة الشعيرات الموجودة في قسمي الأمامي يتصفى الهواء من ذرات الغبار الكبيرة، وعندما يمر من الدهليز ذي التعاريج التي تُشكلها البروزات القُرينية تصفى ذرات التراب الدقيقة وذرات الفحم والبكتريا وغبار طلع الأزهار من قِبل الأغشية المخاطية وإفرازاتِ هذه الأغشية التي تلتصق عليها هذه الذرات والبكتريا، ومن قبَل بروزاتها التي تشبه الأهداب. ونظرا لأن مقدار الضغط الجوي الموجود في داخلي أقل من الخارج يسهل تدفئة وترطيب الهواء الذي يمر فيها.

خلايا الشم ومزاياها

هناك نسيج خاص حساس للروائح يغطي القُرين الأعلى. فخلايا هذا النسيج ذات أهداب وهي حساسة وتعد بمثابة مستقبِلات للروائح. وهذه الخلايا مع الخلايا المساعدة لها تشكل هذا النسيج. فكل مادة تنشر جزيئاتها في الهواء لها روائح. وعملية الشم عملية معقدة تحتوي على سلسلة من التفاعلات التي تنتهي بهذا الإحساس في الدماغ. وأنا لا أدري في الحقيقة كيف يتم هذا الأمر ولكن هناك عدة نظريات حوله. فاهتزازات الجزيئات التي تصلني مع تيارات الهواء تكون مختلفة تبعا لاختلافات بنيتها، لذا تؤدي إلى اختلاف في طبيعة التفاعلات الكيميائية التي تحدث في الخلايا المستقبلة للروائح، وإلى حدوث تنبيهات كهربائية مختلفة. فالجزئيات التي تأتي مع الهواء تذوب في الرطوبة الموجودة في نسيج شم الروائح وتنبه خلايا أعصاب الشم تنبيها كيمياويا. في الأجواء الجافة يجف غشائي المخاطي، لذا لا تذوب الجزيئات فيصعب عليّ شم الروائح. كما أن النقص في معدن الزنك – الذي يوجد في جسمك بنسبة قليلة– يؤدي إلى ضعف في قابلية الشم أو إلى انعدامها كليا.

ويعود السبب في اختلاف رائحة وطعم ولون الثوم عن رائحة ولون الورد أو الياسمين إلى أن كل شيء وكل حي يتركب من عناصر ومن مركبات مختلفة. فالجزيئات التي تنتشر في الهواء من هذه المركبات تكون مختلفة وتقوم بتنبيهات مختلفة. ولكن الملفت

للنظر هنا هو عمل هذه المنظومة الرائعة التي تستطيع تمييز هذه الروائح المختلفة وحفظها في ذاكرتها.

وعندما تتلقى رائحة جديدة لم يسبق لك أن تلقيتها من قبلُ تستطيع منظومةُ الرائحة عندك معرفة أن هذه رائحة جديدة، وذلك من بنيتها ومن اهتزازاتها، وتسجل هذه الرائحة في ذاكرتها، فإن صادفتْها مرة أخرى عرفتها، وهذا الأمر المعقد الذي لا يُعرف لحد الآن جميعُ ما يتعلق بماهيتها يدخل في فيزيولوجية الشم. ومن المميزات الجميلة للخلايا المستقبلة للروائح هي أنها تكون حساسة للروائح التي تشمها للمرة الأولى، ولكن بعد فترة تقل هذه الحساسية حتى تدخل في مرحلة تعدم فيها قابلية شم تلك الرائحة. وهذا من رحمة الله تعالى، لأنه لولا هذه الميزة لما استطاع عمال تنظيف المجاري، ولا عمال المذبحة والمسلخة العملَ في تلك الأجواء من الروائح.

الغشاء المخاطي وأعراضها

من السهل انتفاخ الغشاء المخاطي الذي يبطنني بالدم أو بسوائل الأنسجة. وقد ينسد فراغي الداخلي تماما، فيصعب عليك التنفس عندما يلتهب بفعل البرد أو بسبب التهاب مثل التهاب حمى القش. والحقيقة أنه عند التهاب مجاري التنفس في القسم العلوي، تكون البداية بظهور سيلان، ثم يبدأ الانسداد عندي. فكما يتعفن الماء الراكد ويفسد ويتحول إلى مستنقع، كذلك الأمر عندي، إذ ما إن ينسد فراغي حتى يتسارع تكاثر الجراثيم وتبدأ بالسريان إلى أعضاء التنفس الأخرى. فإذا أصبت بالبرد فعليك أن تحاول جاهدا منع انسدادي. ولا شك أن الشاي الحار ولاسيما شاي بعض النباتات مفيد، ولكن الأفضل هو الماء المالح الذي تبلغ نسبة الملوحة فيه تسعة بالألْف، فإذا استنشقت هذا الماء المالح فسرعان ما يزول الانسداد. أما قطرة الأنف -بأنواعها المختلفة- فلا أوصيك باستعمالها إلا عند الضرورة القصوى، لأن استعمالها يؤدي إلى الاعتياد عليها أوّلا، ولأن لها تأثيرات جانبية سلبية أخرى ثانيا. في حالة التهاب تجويفي في الجانبين والتهاب الفراغ الموجود بين عظام القحف فوقي، وكذلك في حالة التهاب اللوزتين وظهور الزوائد وانتفاخها، يأخذ الرشح عندي حالة دائمة، ويؤدي إلى التهاب مزمن. وهناك أمراض عديدة تكون الإشارة إليها عن طريق النزف الذي يصيبني، مثل ارتفاع ضغط الدم والعديد من أمراض الحمى. والحقيقة أن نزفي نتيجة ارتفاع ضغط الدم يعد تحذيراً ويلعب دور صمام أمان، لأنه إذا لم تنفجر إحدى الشعيرات الدموية عندي نتيجة ارتفاع ضغط الدم ولم يحصلْ نزيف دموي يؤدي إلى انخفاض ضغط الدم، انفجر أحد الشرايين في الدماغ وأدى إلى نتائج وخيمة جدا.

الشم نعمة إلهية كبرى

عزيزي عبد الله... إن قمت بعد الآن بشم زهرة أو رائحة جميلة أخرى فلا تنس أن تحمد الله تعالى على ما أحدثَتْه تلك الرائحة العطرة من مشاعر جميلة في روحك. فلو لم يجعلني الله تعالى آلة لتصفية الهواء الذي تتنفسه وتنْقيته من المواد الضارة لامتلأت رئتاك بالأوساخ والغبار والسُخام، ولَمَا تمتعتَ تماما بما تتناوله من أطعمة، لأن الإحساس بلذة الطعام لا يقتصر على الطعم فقط، بل هو إحساس يشترك في تكوينه الطعم والرائحة. فمثلا نرى أن الشخص الذي انعدمت عنده قابلية الشم لا يعرف عما إذا كان يأكل تفاحة أم فجلا. فلو لم تشم رائحة ما تأكله لما اكتملت لديك لذة الأطعمة.

عزيزي عبد الله... لا أرى ضرورة لتقديم نفسي إليك أكثر، فحتى النظارة التي تلبسها تستند إليّ. وقد قدمت لك نفسي بصورة موجزة دون الدخول في تفاصيل ميكروسكوبية وتشريحية دقيقة. فبينما يستحيل ظهور شعرة واحدة عندي في مكانها الصحيح مصادفة كيف يمكن أن يظهر بالمصادفة عضو مثلي يحوي حِكما لا تعد ولا تحصى؟! أيّ نحات يستطيع القيام بنحت أنفِ تمثال وبيده مطرقته وإزميله دون أن يكون في ذهنه مثال وموديل معين وإرادة معينة؟! فهل هناك أيّ احتمال أن أظهر -وأنا العضو الأعقد والأدق بالآف المرات من أنف تمثال- دون أن يخلقني رب العالمين؟! إذن عندما تغسل وجهك في المرة القادمة وتتطلع إليه في المرآة دقق النظر فيّ ولا تنس أن تحمد الله تعالى وتشكره.■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



مفهوم الواجب في الإسلام

مقتضياته التشريعية وتطلُّباته الحِكَميّة (٢)

أ.د. أحمد عبادي*

إن علماءنا قد نظروا إلى الواجبات باعتبارها مرتّبة حسب مراتب ثلاث، فثَمة الضروريات ثُم الحاجيات ثم التحسينيات. وأرسوا بناء على هذا الوعي العميق دوائر للواجب يحمي بعضها بعضا وَفْقَ نسق مفهومي في غاية الدقة، فنصّوا على أن اختلال الضروري بإطلاق يؤدي إلى اختلال الحاجي والتحسيني بإطلاق، وأنه لا يلزم منِ اختلالهما أو اختلال أحدهما اختلالُ الضروري بإطلاق، كما نصّوا على أن اختلال الحاجي بإطلاق ينجم عنه اختلال التحسيني بإطلاق، ونصوا على أن اختلال التحسيني بإطلاق يؤدي إلى اختلال الحاجي بوجه ما، وأن اختلال الحاجي بإطلاق يؤدي إلى اختلال الضروري بوجه ما. مما يلزم معه الحفاظ على الواجبات المتعلقة بالتحسيني حماية للحاجي، والحفاظ على الواجبات المتعلقة بالحاجي حماية للضروري. وبينوا أن التجرّؤ على الإخلال بالتحسيني منها معرِّض للتجرؤ على ما سواه. وعلى هذا الإدراك قام أصل سدّ الذرائع واعتبار المآل، وقرروا أن المندوب إليه بالجزء واجب بالكل، إذ الإخلال بالمندوب مطلقا إخلال بركن من أركان الواجب، ونصّوا على أن المندوب في كليته محميةٌ لا يجب خرمها، لأن خرمها يؤدي إلى الإخلال بالواجب وإبطاله. وقالوا في ذلك: "وكل واحدة من هذه المراتب لّما كانت مختلفة في تأكد الاعتبار -فالضروريات آكدها ثم تليها الحاجيات ثم التحسينيات- وكان مرتبطا بعضها ببعض، كان في إبطال الأخفّ جرأةٌ على ما هو آكد منه، ومدخل للإخلال به، فصار الأخفُّ كأنه حمى للآكد، والراعي حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، فالمخلّ بما هو مكمِّل كالمخل بالمكَمَّل من هذا

الوجه"[1]. قال الإمام الغزالي رحمه الله: "قلّما يُتصوّر الهجوم على الكبيرة بغتة، من غير سوابقَ ولواحقَ من جهةِ الصغائر"[2].

معظم الواجبات كفائية

وحيث ثبت أن جلَّ الواجبات التي تقوم عليها حياة الأمم في معاشاتها داخلة في الصنف الكفائي، ويقتضي كلٌ مِن تَبَيُّنها ومَقْدرتها وتقعيداتها وتقنيناتها اجتهادات مستأنفةً في كل حين، من أجل تنزيلٍ متَّزِن لها على أرض الواقع تكون عاقبته يسرا... لما ثبت أن الأمر كذلك، فقد كان لعلمائنا كلام مفصل نفيس عن كيفية الاضطلاع بالواجب في سياقاته المختلفة؛ من نظرٍ في المآلات وتحقيقٍ للمناطات وتنقيحٍ لها وموازنة دقيقة بين المصالح والمفاسد جلبا للأُولى إن رجحت، ودفعا للثانية إن غلبت، تسديدا وتقريبا وتغليبا، مع تحديدات وضيئة لمناهجِ كل ذلك مما هو مفصل في مظانه.

فقه الموازنات واعتبار المصالح

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: "النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل [فقد يكون] مشروعا لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه، أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك، فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعا من إطلاق القول بالمشروعية؛ وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم المشروعية ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد، فلا يصح القول بعدم المشروعية، وهو مجال للمجتهد صعب المورد، إلا أنه عذب المذاق، محمود الغِبِّ جارٍ على مقاصد الشريعة"[3].

وعن فقه الموازنات يقول هذا الإمام: "وإنا وجدنا الشارع قاصدا لمصالح العباد، والأحكام العادية تدور معها حيث دارت، فترى الشيء الواحد يُمنع في حال لا تكون فيه مصلحة، فإذا كان فيه مصلحة جاز"[4]. ومفاد ذلك وجوب الموازنة بين الاحتمالات الممكنة في غير المحكم من الأحكام، ترجيحا وموازنة بين ما تحققه تنزيلاتها في إطار الشرع الحنيف وبمقاييسه وموازينه من المصلحة في الظرف الواقعي المعين، ثم اعتماد الاحتمال الذي يرجُح أنه أكثر تحقيقا للمصلحة بضوابطها الشرعية المبينة في أماكنها، واعتبار ذلك هو الحكم الشرعي في تلك الحالة، وهذا مناط الاجتهاد فيما مردّ الأحكام فيه إلى النظر. ومن تداعيات الوعي العميق عند علمائنا بهذه الآليات في النظر كونهم درجوا على ألا يُسقطوا من اعتبارهم الآراءَ المرجوحة في تراثنا الفقهي، إذ هي ذخيرة اجتماعية قد تمس إليها الحاجة في أوضاع لاحقة مختلفة، فما لم يرجح في واقع عيني مشخص نظرا لملابسات وسياقات معينة، قد يضحى راجحا ضمن ملابسات وسياقات أخرى، وفقه إمام دار الهجرة إمامنا مالك ﷺ يحضر فيه هذا الوعي العميق بشدة، لانبنائه على قواعد واقعية كعمل أهل المدينة والاستحسان والمصلحة المرسلة وسد الذرائع.

كما نبغ علماؤنا في تقعيد فقه مراتب الأعمال ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها والأقلّ علواً، وفاضلها ومفضولها، ورئيسها ومرؤوسها، وسيدها ومسودها. يقول ابن القيم رحمه الله: "فإن في الأعمال والأقوال سيدا ومسودا، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: "سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك...الحديث" (رواه البخاري)، وفي الحديث الآخر: "الجهاد ذروة سنام الأمر" (رواه ابن ماجه)، وفي الأثر: "إن الأعمال تفاخرت، فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله، فكان للصدقة مزية في الفخر عليهن" ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادّة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها وأعطوا كل ذي حق حقه"[5].

وصعوبة المورد التي أشار إليها الشاطبي آنفا في هذا الاجتهاد تصبح مضاعفة في واقعنا الراهن، نظرا لكون العالم قد تقاربت أركانه اليوم بفعل كل ما تم التوصل إليه من إمكانات. وأضحى تيار التأثير والتأثر يمرّ بين أرجائه بيسر بالغ، وينطّ فيه الجديد كلَّ عشر ثانية فما أقل، مما يفرض فرضا الاجتهاد الجماعي متعدد الاختصاصات، وفق منهجيات تكاملية تقوَّم في كل حين حتى تُضمن فاعليتُها ومواءمتُها لتطلبات الواقع. وهذا هو الدور الحيوي المنوط بمؤسسة العلماء.

مرحلة الجمود وأسبابه

ويحق للمرء بهذا الصدد أن يتساءل عن الأسباب التي تحول دون التوظيف والاستثمار الأمثلين الدائمين والممنهجين لكل هذه الجهود المشرقة في واقعنا الإسلامي خلال الفترات السابقة.

ويمكن إجمال هذه الأسباب في أربعة:

١-السبب العقيدي: أدى انتشار عقيدة إبطال الأسباب في

الأمة نتيجة لسوء فهم تقريرات بعض الأئمة كالرازي والغزالي وغيرهما، إلى التواكل الذي أفضى إلى أضرب من العجز، فغيض العطاء، وانكمشت العقول، وفشت الشعوذة، واستتب التعامل مع الكون استهلاكا وتأثرا، وليس إبداعا وتأثيرا، مما جَرّ عواقب غير مرضية وأسهم بفعالية في إدخال الأمة إلى فترة من الجمود. و لم يقتصر الأمر على الجانب العملي، بل تعدّت الإصابة إلى الجانب التنظيري العلمي فأسقطت المقاصد، إذ استبعد عند طوائف من العلماء أن تكون الشريعة وضعت لعلة، وبسبب جلب المصالح العاجلة والآجلة للعباد في الدنيا والآخرة، مما جعل عطاء فقهاء الأمة ينحسر في ترداد ما كان من الفتاوى والأنظار، ويجمد دون مجال الكشف عن مقاصد الشارع في شرعه مما هو مجاف للشرع نفسه، يقول الشاطبي: "واستقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد، استقراء لا ينازع فيه الرازي ولا غيره فإن الله تعالى يقول في بعثة الرسل: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(النساء:١٦٥)"[٦]. ويقول ابن القيم: "وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشرّ، والأحكام الكونية والأمرية، على الأسباب، بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما على الأسباب والأعمال، ومَن تفقه في هذه المسألة وتأملها حق التأمل، انتفع بها غاية النفع و لم يتّكل على القدر، جهلا منه وعجزا وتفريطا وإضاعة، فيكونَ توكّله عجزا، وعجزه توكّلا، بل الفقيه كل الفقه الذي يردّ القدر بالقدر، بل لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك"[٧]. ويقول: "وقد رتب سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال، ترتيبا للجزاء على الشرط والمعلول على العلة والسبب على المسبب، وهذا في القرآن يزيد على الألف موضع"[٨].

وهذا السبب العقيدي كان من شأن الوعي به وتجاوزه أن يوسع آفاق الأمة ومداركها ويجنبها الوقوع في نكبات كثيرة، سياسية واجتماعية واقتصادية.

٢-السبب التصوري: سادت في العالم الإسلامي، خلال العصور الأخيرة تصورات سلبية حادت بالمسلمين خاصتهم وعامتهم عن المشاركة الإيجابية في حل مشاكل مجتمعاتهم، وحادت بهم عن التبني المتبادل لهموم بعضهم البعض من خلال قيام كلٍ حسبَ قدرته بالفروض الكفائية، وتفلتت من وعيهم الجماعي ومن بنائهم التصوري بعض أهم سمات هذا الدين وعلى رأسها الواقعية. فالإسلام دين واقعي، تتجلى واقعيته في تصوراته للإنسان والكون والحياة، وتتجلى في تشريعاته. فالإسلام ينصّ على أن القدرة هي حد التشريع الذي يقف عنده، فلا يتحرك إلا معها، فإذا وقفت القدرة وقف التشريع حيث هو، لا يتقدم ولا يتأخر؛ يقول تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦)، ويقول سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(التغابن:١٦). فليس ثمة ضيق على الإنسان في التشريع، بل هو المجال الواسع الذي يجعله يتحرك براحة وحرية، فإذا ضاق عليه حكم وَسعه آخر. فهنالك قاعدة "نفي الحرج": ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(الحج:٧٨)، وقاعدة "الضرر يزال" وقاعدة "لا ضرر ولا ضرار" وقاعدة "الأمر إذا ضاق اتسع". إلا أن هذه التصورات والضوابط حين اختفت من أذهان المسلمين اختفت في تقعيدات علماء العصور المتأخرة، فاختفت من واقعهم حركية الإسلام المعهودة ونبضه المألوف.

إن استبطان هذه السمات هو الذي يقدح زند حركة المجتمع المسلم بمنحه لأفراده هذه الأسس التصورية الرافعة لكوابح الكسب النافع.

٣-السبب الفقهي: إن تدبير وتنظيم الاضطلاع المبرئ للذمة بالواجبات الكفائية في كافة جوانب الحياة العامة، من وظائف مؤسسة الإمامة العظمى، فهي القائمة على تقديرها وتنسيقها وتدبيرها. وعلى "النظر الكلي في كفاية أهم الأشغال" كما قال الإمام الجويني في الغياثي بعد ذكره مهام مؤسسة الإمامة العظمى[٩]. فإلى الإمامة العظمى إذن يعود تقدير الفروض الكفائية وتنسيقها وتدبيرها والنظر الكلي في كفاية أهم الأشغال، ولكن هذا لا يعني بحال تبرئة ذمة المواطنين من القيام بواجباتهم في هذا الصدد. وهو ما قرره إمام الحرمين بقوله: "ومما يجب الإحاطة به أن معظم فروض الكفاية مما لا تتخصص بإقامتها الأئمة بل يجب على كافة أهل الإمكان أن لا يغفلوه ولا يغفلوا عنه. وإن ارتفع إلى الإمام أن قوما يعطلون فرضا من فروض الكفايات زجرهم وحملهم على القيام به"[١٠]، إلى أن يقول: "والدنيا بحذافيرها لا تعدل تضرر فقير من فقراء المسلمين في ضر، فإن انتهى نظر الإمام إليهم رمَّ ما استرمّ من أحوالهم، فإن لم يبلغهم نظر الإمام وجب على ذوي اليسار والاقتدار البدار إلى دفع الضِّرار عنهم، وإن ضاع فقير بين ظهراني موسرين حرجوا من عند آخرهم وباؤوا بأعظم المآثم وكان الله طليبهم وحسيبهم. وقد قال رسول الله ﷺ: "من كان يومن بالله واليوم الآخر، فلا يبيتنّ ليلةً شبعانَ وجاره طاو"[١١]. وإذا كان تجهيز الموتى من فروض الكفايات، فحفظ مهج الأحياء وتدارك حُشاشَة الفقراء أتم وأهم"[١٢].

ولتحقيــق هذه المقاصد مضى إجماع علماء المســلمين على وجوب إقامة الإمامة العظمــى حفاظا على حقوق الأمة المرتهنة بالقيام بالواجبــات الكفائية على وجه الكفاية، ولولا الإمامة – وكما قال العز بن عبد السلام رحمه الله- "لفاتت المصالح الشاملة وتحققت المفاســد العامة واسـتولى القويّ على الضعيف"(١٣). وللإمام الجويني رحمه الله في الغياثي مثل هذا القول(١٤)، و لم يشذ عن هذا الإجمـاع إلا النجدات من الخوارج والأصم من المعتزلة كما روى ذلك الإمام القرطبي المالكي.(١٥)

غــير أن انحرافا عن هذه المقاصد قــد وقع منذ وقت مبكّر، فقد أتت على الأمة أحيان من الدهر طغى فيها على الانشــغال بالاضطلاع بالفــروض الكفائية وتنظيمها، وبالمجتمع وقضاياه، اشــتغال بالنــزاعات والثورات، والثورات المضادّة، وبالتمكين للــدول القائمة على أنقاض دول، وتتبــع بقايا وجذور الدول المسقطة، كما سُــجّل انزلاق في وهاد مشاريع وهمية، كسقوط دولــة المأمون في فخ فتنة خلق القــرآن، وغيرها من الفتن، وما أعقب ذلك من انفصامات عدة في جســم الدولة، وأعاق جزئيا التطور الطبيعي لكسب الأمة الفقهي، والعلمي التنــزيلي في هذه الاتجاهات. فلم يُشحذ فقه المجتمع، ويبرد بالمناظرات والحوارات والرسائل، شــأن فقه الأفراد (فقه العبادات بشكل خاص)، إذ لم يكــن همّ التنظير للحياة في المجتمــع والاضطلاع بالفروض الكفائية، وهمّ استنباط الأحكام الخاصة بذلك همَّ جمهور الفقهاء، و لم يتوجــه إلى ذلك إلا بعض النابهين منهم، مما يفســر ندرة ما يتداول من العناوين في هــذا المضمار، حتى بين خاصة العلماء، كالأحكام السلطانية للماوردي، والسياسة الشرعية لابن تيمية، والطرق الحكَمية في السياسة الشرعية لتلميذه ابن القيم، وسلوك المالــك في تدبير الممالك، لابن أبي الربيع، وما دبّجه ابن خلدون في مقدمته. وغير ذلك قليل.

مما يقتضي اجتهادا مستأنفا تنخرط فيه بوظيفية كلُّ المؤسسات البحثية المعنية من مقترب تنظيــم الواجبات الكفائية تحت قيادة مؤسسة الإمامة العظمى، وهو مقترب يمنح -كما تقدم- مدخلا نسقيا للشأن العامّ ويمكّن من القيام بهندسة اجتماعية راشدة.

٤-الصدمة الحضارية: لقد نشطت المجتمعات المسلمة أفرادا ومؤسسات -عبر التاريخ- لإقامة الواجبات الكفائية وأبدعت في ذلك، تشهد بذلك أوقاف المسلمين في تنوعها وإبداعيتها، وكذا التدبيرات السلطانية والمخزنية في الموانئ والثغور، وتسبيلُ السبل وبناءُ المرافق، وحفظُ الأمن وإقامة المعاهد العلمية، وغير ذلك من الوظائف كثير، مما يؤشــر على النبض الذي كان في المجتمعات المســلمة، وقد واكب هذه الأعمال جهــود تقعيدية وتنظيرات علمية رائعة، لا يزال جلها -للأسف- ثاويا في بطون السجلات والدفاتر المخزنية والكنانيش الوقفية، وتحتاج إلى استخراج وترتيب ودراســة حتى لا نقسو حضاريا على أجيالنا السالفة بسبب عدم التعرف على جهودهم في هذه المجالات، وهذا يحتاج إلى تجسير معــرفي -تصالحي- بين أجيال علماء الأمة، خصوصا بين أجيال ما قبل الاستعمار وما بعده من العلماء والباحثين، وهو تجسير لا يمكن أن يتم إلا بالوقوف على اجتهاداتهم وعلى شدّة الصدمة التي ما كانت تغني عنها هذه الاجتهادات في ما مهّد للاســتعمار من فترات فأثمر ما أسماه مالك بن نبي رحمه الله "القابلية للاستعمار".

يقول المؤرخ المنصف (Marshal Hodgson) في كتابه القيم: "التفكير المســتأنف في تاريخ العالم": "إلى حدود القرن السابع عشر من حقبتنا التاريخية هذه، كانت المجتمعات المرتبطة بالديانة الإســلامية أغنى المجتمعات في الشق الأفرو (أورو) آسيوي من العالم، وكانت الأكثر تأثيرا على المجتمعات الأخرى، وقد كان ذلك في جزء منه بســبب موقعها الجغرافي المركزي، ولكن كان ذلك أيضا بســبب أنه كانت تظهر فيها وبفعالية ضغوط ثقافية مدنية لا تقليدية نزاعة نحو المســاواة. لقــد أضحت ثقافة العالم الإسلامي مقياســا للتقدم العالمي لشعوب كثيرة وهي تندمج في مجالــه الاقتصادي والحضاري، كما منحت هــذه الثقافة إطارا سياســيا مرنا للأعداد المتصاعدة مــن المتحضرين الأصلاء. لقد كانت المجتمعات الإسلامية تبرهن على إبداعية مستدامة وعلى نماء، رغم أن بعض الفترات كانت أكثر إبداعية من أخرى. إلى أن بلغنا العصر الحديث، حيث انقطع هذا التطور ليس بسبب انهيار داخلي، ولكن أساسا بسبب أحداث خارجية غير مسبوقة"(١٦).

ويقصد بهذه "الأحداث الخارجية غير المســبوقة" الطفرات العلمية التي انطلقت في الغــرب، وهي طفرات قد فَرضت على العالم -آنــذاك- إيقاعا جديدا لم يكن عنــده بمألوف.. إيقاعٌ لم يواكبه الكسب السياســي والاجتماعي والعلمي الممكّن من مجاراته ومن الفعل الحضاري ضمن شروطه.

وبيْــن أيدينا نص نفيس معبر التقــط فيه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي المتوفى ســنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م بــبراءة وأمانة، هذه اللحظةَ الحضارية بالذات، حين كلامه عن حملة نابليون في مصر،

قال ضمن أحداث سنة ١٢١٣هـــ: "أحدثوا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية أبنية وكرانك وأبراجا، ووضعوا فيها عُدّة مـــن آلات الحرب، وأفردوا للمدبّرين (أي العلماء القائمين على التجارب) حارة الناصرية. وإذا حضر إليهم بعض المســـلمين ممن يريدون الفرجة لا يمنعونه الدخـــول إلى أعز أماكنهم، ويتلقونه بالبشاشـــة والضحك. ومن أغرب ما رأيتـــه في ذلك المكان أن بعضهم قد أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المســـتخرجة، فصب منها شيئا في كأس، ثم صبّ عليها شيئا من زجاجة أخرى فَعَلا الماء وصعد دخان ملون، حتى انقطع وجفّ مـــا في الكأس، وصار حجرا أصفر، فأخذنـــاه بأيدينا ونظرناه. ثم فعل ذلك بمياه أخرى فجمـــد حجرا أزرق، وبأخرى فجمد حجرا ياقوتيا. وأخذ مرة شيئا قليلا من غبار أبيض ووضعه على السندال، وضربه بالمطرقة بلطف، فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة، انزعجنـــا منه فضحكوا منّا. وأداروا زجاجة فتولّد من حركتها شـــرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف، ويظهر له صوت وطقطقة، وإذا لمس شـــخص ولو خيطا لطيفا متصلا بها، ولمس آخرُ الزجاجة الدائرة، أو ما قرب منها بيده الأخرى، ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجّة سريعة. ومن لمس هذا اللامس أو شيئا من ثيابه متصلا به حصل له ذلك، ولو كانوا ألفا أو أكثر. ولهم فيه أحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا"[١٧].

"لا يسعها عقول أمثالنا" إنها عبارة قصيرة، ولكنها مشحونة بالدلالات، تعبّر عن شـــدّة الصدمة وعن التسليم النفسي الذي تلاهـــا، وعند علية القوم. فعبـــد الرحمن الجبرتي في تلك اللحظة التاريخية كان من خاصة العلماء، بمعنى أن التوتر الحضاري قد فقد بسبب هذه الصدمة قبل أن يعقُبه التماسك في الأمة وفي علمائها، إلا ما اســـتثني من بعض الأفراد الذين كانوا يعيشون غربة، وقد كانت هذه حالة عامة في المشـــرق والمغرب، وذلك بفقد العزم على فهم الظواهر المحيطة "وهذا ما لا تدركه عقول أمثالنا"، وإذا فقد هذا العزم على فهم الظواهر المحيطة فقد تم الوقوع في البكم الحضـــاري، وقد مرّ مَعَنا معنى البكم عند الكلام عن قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْـــتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل:٧٦)، فهو العجز عن الفهم والتفهيم، والبكم مقدمة الكَلاَلة أي الثقل وفقدان الإرادة ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ﴾. والكلالة مقترنة بالبكم تؤدي لا محالة إلى العجز ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ فلا غرو أن لا يســـتفاد ضمن شروط نفسية كهذه من الثروات المعرفية التي تمتلكها الأمة في بلورة مناهج التفهم وتحقيقـــات المناطات وتنقيحاتها توصلا إلى مناهج الصياغة التنـــزيلية لتناول هذه المســـتجدات وتبيّن ما يجب إزاءها من واجبات، وهـــذه الحالة الثانية هي المقصودة في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. غير أن هذه الصدمة الحضارية بفضل الله كانت صدمة أعقبها تماسك فنهوضٌ فغذٌّ للسير، وها هم أبناء الأمة وبناتها اليوم بعد قرنين ونيف (٢٠٩ سنة) من هذه الظرفية التي اجتازتها الأمة وعبّر عنها ببراءة ووضوح وأمانة الشـــيخُ الجبرتي رحمه الله –وما قرنان ونيف في الزمن الحضاري؟!– وها هم منغمرون بدافع من الشعور بالواجب أشدّ ما يكون الانغمار في أحدث العلوم، داخل الأوطان وخارجها، لا يرددون عبارات الصدمة وإنما يرددون –بحمد الله– عبارات التنافسية البناءة، ولم يكن خلال هذه الرحلة كلّها كالشعور بالواجب زادٌ يحمل المكلفين على البذل والمثابرة.

فهذه جملة أســـباب نرى أنها كانت خلال هذا الزمن الوجيز حضاريا وراء ما كان من ارتخاء حضاري وقلة في الفاعلية. وإننا لنرقب بارتياح كبير مؤشرات الوعي العام بها في الأمة، مما يبشر بغد أحسن عاقبة وأيسر مآلا. والله المستعان.■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

(١) الموافقات، للشاطبي، ٣١/٢.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي، ٣٢/٤.

(٣) الموافقات، للشاطبي، ١٩٤/٤-١٩٥.

(٤) الموافقات، للشاطبي، ٢٢٥/٢.

(٥) مدارج السالكين، لابن القيم، ٢٢٥/١.

(٦) الموافقات، للشاطبي، ٦/٢-٧.

(٧) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم، ص ١٠.

(٨) الجواب الكافي، لابن القيم، ص ١٨٨.

(٩) الغياثي، للجويني، ص ١٤٩.

(١٠) الغياثي، للجويني، ص ١٥٥-١٥٦.

(١١) الأدب المفرد، للبخاري، ص ٤٦.

(١٢) الغياثي، للجويني، ص ١٧٣-١٧٤.

(١٣) قواعد الإمام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام، ص ٥٨.

(١٤) غياث الأمم في التياث الظلم، للجويني، ص ٢٤.

(١٥) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٦٥/١.

(16) Marshal Hodgson, Rethinking World History, pp. 97.

(١٧) عجائب الآثار، لعبد الرحمن الجبرتي، حوادث سنة ١٢١٣هـــ.

عنده ﷻ تلتقي ساميات الأفكار، ويجد كلُّ عظيم من بني الإنسان ما يرفده ويغذوه. فكل معرفة منه تتضوأ، وكل فكر إلى جانب فكره عقيم. وأشدُّ النيرات تألقا إلى جانب أنواره ليلٌ دامس، وكل نظر إلى جانب نظره قاصر، وكل شعور إلى جانب شعوره حسير.

***

التكوين الإلهي العجيب

أبواب السماء

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾

(الحجر:١٤).

أ.د. زغلول النجار*

على الرغم من كون "لو" حرف امتناع لامتناع، وكون هاتين الآيتين الكريمتين قد وردتا في مقام التشبيه والتصوير لحال المكابرين من الكفار والمشركين وعنادهم وصلفهم، إلا أن صياغتهما قد جاءت - كما تجيء صياغة كل آيات القرآن الكريم- على قدر مذهل من الدقة العلمية والشمول للحقيقة الكونية والكمال المطلق مما يشهد بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته.

وأحاول في هذا المقال عرض عدد مما استطعت إدراكه من ملامح الإعجاز العلمي في هاتين الآيتين الكريمتين على النحو التالي:

السماء بناء محكم

وقد ورد في قول الحق ﷻ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ مما يؤكد أن السماء ليست فراغا كما كان يعتقد الناس إلى عهد قريب، حتى ثبت لنا أنها بنيان محكم، يتعذر دخوله إلا عن طريق أبواب تفتح للداخل فيه. والسماء لغة، هي كل ما علاك فأظلك. واصطلاحاً، هي ذلك العالم العلوي الذي نراه فوق رؤوسنا بكل ما فيه من أجرام، وعلمياً، هي كل ما يحيط بالأرض من مختلف صور المادة والطاقة بدءا من غلافها الغازي وانتهاء بحدود الكون، والذي أدرك العلماء منه مساحة يبلغ قطرها ٢٤ ألف مليون سنة ضوئية على الأقل.

وقد ثبت مؤخرا أن السماء مليئة بمختلف صور المادة والطاقة التي انتشرت بعد انفجار الجرم الكوني الأول –والذي كان يضم كل مادة الكون، ومختلف صور الطاقة المنبثة في أرجائه اليوم– وذلك عند تحوله من مرحلة "الرتق" إلى مرحلة "الفتق" كما يصفهما القرآن الكريم. وعند ذلك تحولت مادته ومختلف صور الطاقة المخزونة فيه إلى سحابة هائلة من الدخان ملأت فسحة الكون، ثم أخذت في التبرد والتكثف بالتدريج حتى وصلت إلى حالة من التوازن الحراري بين جسيمات المادة وفوتونات الطاقة. وهنا تشكلت بعض نوى الإيدروجين المزدوج (الديوتريوم)، وتبع ذلك تخلق النوى الذرية لأخف عنصرين معروفين لنا وهما الأيدروجين والهيليوم، ثم تخلق نسب ضئيلة من العناصر الأثقل وزنا. وبواسطة دوامات الطاقة التي انتشرت في سحابة الدخان التي ملأت أرجاء الكون تشكلت السدم، في سلسلة من العمليات المنضبطة حتى تصل إلى مرحلة الاندماج النووي التي تكوّن النجوم. ومن أشلاء النجوم تكونت الكواكب والكويكبات والأقمار والمذنبات والشهب والنيازك والأشعات الكونية التي تملأ فسحة الكون بأشكالها المتعددة، وغير ذلك مما لا نعلم من أسرار هذا الوجود.

ولقد كان السبب الرئيسي لتصور أن الكون فراغ تام هو التناقص التدريجي لضغط الغلاف الغازي للأرض مع الارتفاع عن سطحها حتى لا يكاد يدرك بعد ألف كم فوق سطح البحر. ومن أسباب زيادة كثافة الغلاف الغازي للأرض بالقرب من سطحها هو انطلاق كميات هائلة من بخار الماء وغازات عديدة أغلبها أكاسيد الكربون والنتروجين. وقد اختلطت تلك الغازات الأرضية بالسحابة الغازية الكونية، وساعدت جاذبية الأرض على الاحتفاظ بالغلاف الغازي للأرض بكثافته التي تتناقص باستمرار بالبعد عنها، حتى تتساوى مع كثافة الغلالة الغازية الأولية التي تملأ أرجاء الكون وتندمج فيها.

قانون بقاء التحرك الزاوي

لقد وصفت الآية الحركة في السماء بالعروج: ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾، والعروج لغةً هو: سير الجسم في خط منعطف منحن، وقد ثبت علميا أن حركة الأجسام في الكون لا يمكن أن تكون في خطوط مستقيمة، بل لابد لها من الانحناء نظرا لانتشار المادة والطاقة في كل الكون، وتأثيرِ كل من جاذبية المادة والمجالات المغناطيسية للطاقة على حركة الأجسام في الكون. وحتى الأشعةُ الكونية على تناهي دقائقها في الصغر إذا عبرت خطوطَ أيِّ مجال مغناطيسي فإن هذا المجال يُحني مسار الشعاع بزاوية قائمة على مساره. فانتشار كل من المادة والطاقة في الكون عبر عملية الفتق وما صاحبها من انفجار عظيم كانت من أسباب تكوره، وكذلك كان انتشار قوى الجاذبية في أرجاء الكون من أسباب تكور كل أجرامه، وكان التوازن الدقيق الذي أوجده الخالق العظيم بين كل من قوى الجاذبية والقوى الدافعة الناتجة عن عملية الفتق هو الذي حدد المدارات التي تتحرك فيها كل أجرام السماء، والسرعات التي تجري بها في تلك المدارات والتي يدور بها كل منها حول محوره.

فعند انفجار الجرم الكوني الأول انطلق كل ما كان به من مخزون المادة والطاقة بالقوة الدافعة الناتجة عن ذلك الانفجار العظيم (عملية الفتق)، والتي أكسبت كل صور المادة والطاقة المنطلقة إلى فسحة الكون طاقة حركة هائلة، وجعلتها بذلك واقعة تحت تأثير قوتين متعارضتين هما: قوة التجاذب الرابطة بينها، والقوة الطاردة الناتجة عن ذلك الانفجار الكوني. وبفضل التوازنُ الدقيق بين هاتين القوتين المتعارضتين هو الذي يحفظ أجرام السماء في مداراتها، ويجعلها تتحرك فيها حركة دائرية بخطوط منحنية باستمرار، كما جعلها تدور حول محاورها بسرعات محددة.

ودوران الأجرام السماوية حول محاورها وفي مداراتها تخضع لقانون يعرف باسم "قانون بقاء التحرك الزاوي" أو "قانون العروج". وينص هذا القانون على أن كمية التحرك الزاوي لأي جرم سماوي تقدر على أساس نسبة سرعة دورانه حول محوره

إلى نصف قطره على محور الدوران، وتبقى كمية التحرك الزاوي تلك محفوظة في حالة انعدام مؤثرات أخرى، ولكن إذا تعرض الجرم السماوي إلى مؤثرات خارجية أو داخلية فإنه سرعان ما يكيف حركته الزاوية في ضوء التغيرات الطارئة.

وبمثل عملية نشأة الكون تماما وبالقوانين التي تحكم دوران أجرامه حول محاورها، وفي مدارات لكل منها حول جرم أكبر منه تتم عملية إطلاق الأقمار الصنعية ومراكب الفضاء من الأرض إلى مدارات محددة حولها، أو حول أي من أجرام مجموعتنا الشمسية، أو حتى إلى خارج حدود المجموعة الشمسية، وذلك بواسطة قوى دافعة كبيرة تعينها على الإفلات من جاذبية الأرض، من مثل صواريخ دافعة تتزايد سرعتها بالجسم المراد دفعه إلى قدر معين من السرعة. ولما كانت الجاذبية الأرضية تتناقص بزيادة الارتفاع عن سطح الأرض، فإن سرعة الجسم المرفوع إلى الفضاء تتغير بتغير ارتفاعه فوق سطح ذلك الكوكب، وبضبط العلاقة بين قوة جذب الأرض للجسم المنطلق منها إلى الفضاء والقوة الدافعة لذلك الجسم (أي سرعته) يمكن ضبط المستوى الذي يدور فيه الجسم حول الأرض، أو حول غيرها من أجرام المجموعة الشمسية أو حتى إرساله إلى خارج المجموعة الشمسية تماما، ليدخل في أسر جرم أكبر يدور في فلكه.

وأقل سرعة يمكن التغلب بها على الجاذبية الأرضية في إطلاق جرم من فوق سطحها إلى فسحة الكون تسمى باسم "سرعة الإفلات من الجاذبية الأرضية"، وحركة أي جسم مندفع من الأرض إلى السماء لابد وأن تكون في خطوط منحنية، وذلك تأثرا بكل من الجاذبية الأرضية، والقوة الدافعة له إلى السماء، وكلتاهما تعتمد على كتلة الجسم المتحرك، وعندما تتكافأ هاتان القوتان المتعارضتان يبدأ الجسم في الدوران في مدار حول الأرض مدفوعا بسرعة أفقية تعرف باسم "سرعة التحرك الزاوي" أو "سرعة العروج".

ولولا معرفة حقيقة عروج الأجسام في السماء لما تمكن الإنسان من إطلاق الأقمار الصنعية، ولا استطاع ريادةَ الفضاء، فقد أصبح من الثابت أن كل جرم متحرك في السماء -مهما كانت كتلته- محكوم بكل من القوى الدافعة له وبالجاذبية مما يضطره إلى التحرك في خط منحن يمثل محصلة كل من قوى الجذب والطرد المؤثرة فيه، وهذا ما يصفه القرآن الكريم بالعروج، وهو وصف التزم به هذا الكتاب الخالد في وصفه لحركة الأجسام في السماء في آيات متفرقات، وذلك قبل ألف وأربعمائة سنة من اكتشاف الإنسان لتلك الحقيقة الكونية المبهرة على النحو التالي:

- ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾(الحجر:١٤).
- ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(السجدة:٥).
- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾(سبأ:٢)، (الحديد:٤).
- ﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾(الزخرف:٣٣).
- ﴿مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۞ تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(المعارج:٤-٥).

ظلمة الكون

وقد وردت في قول الحق ﷻ: ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾. ومعني ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ أغلقت عيوننا وسدت، أو غشيت وغطيت لتمنع من الإبصار، وحينئذ لا يرى الإنسان إلا الظلام. ويعجب الإنسان لهذا التشبيه القرآني المعجز الذي يمثل حقيقة كونية لم يعرفها الإنسان إلا بعد نجاحه في ريادة الفضاء حين فوجئ بحقيقة أن الكون يغشاه الظلام الدامس في غالبية أجزائه، وأن حزام النهار في نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس لا يتعدى سمكه ٢٠٠ كم فوق مستوى سطح البحر، وإذا ارتفع الإنسان فوق ذلك فإنه يرى الشمس قرصا أزرق في صفحة سوداء حالكة السواد، لا يقطع حلوكة سوادها إلا بعض البقع الباهتة الضوء في مواقع للنجوم.

وإذا كان الجزء الذي يتجلى فيه النهار على الأرض محدودا في طوله وعرضه بنصف مساحة الكرة الأرضية، وفي سمكه بـ٢٠٠ كم، وكان في حركة دائبة مرتبطة بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وكانت المسافة بين الأرض والشمس في حدود ١٥٠ مليون كم، وكان نصف قطر الجزء المدرك من الكون يقدر بـ١٢ بليون سنة ضوئية، اتضحت لنا ضآلة سمك الطبقة التي يعمها نور النهار، وعدم استقرارها لانتقالها باستمرار من نقطة إلى أخرى على سطح الأرض مع دوران الأرض حول محورها، واتضح لنا أن تلك الطبقة الرقيقة تحجب عنا ظلام الكون، خارج حدود أرضنا ونحن في وضح النهار، فإذا جن الليل انسلخ منه

النهار، واتصلت ظلمة ليلنا بظلمة الكون، وتحركت تلك الطبقة الرقيقة من النور لتفصل نصف الأرض المقابل عن تلك الظلمة الشاملة التي تعم الكون كله.

وأما تجلي النهار على الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض بهذا اللون الأبيض المبهج فهو نعمة كبرى من نعم الله على العباد. وتُفسَّر بأن الهواء في هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض له كثافة عالية نسبيا، وأن كثافته تتناقص بالارتفاع حتى لا تكاد تدرك، وأنه مشبع ببخار الماء وبهباءات الغبار التي تثيرها الرياح من فوق سطح الأرض فتعلق بالهواء، وتقوم كل من جزيئات الهواء الكثيف نسبيا، وجزيئات بخار الماء، والجسيمات الدقيقة من الغبار بالعديد من عمليات تشتيت ضوء الشمس وعكسه حتى يظهر باللون الأبيض الذي يميز النهار كظاهرة نورانية مقصورة على النطاق الأسفل من الغلاف الغازي للأرض في نصفها المواجه للشمس. وبعد تجاوز ٢٠٠ كم فوق سطح البحر يبدأ الهواء في التخلخل لتضاؤل تركيزه، وقلة كثافته باستمرار مع الارتفاع ولندرة كل من بخار الماء وجسيمات الغبار فيه لأن نسبها تتضاءل كذلك بالارتفاع حتى تكاد تتلاشى.

فسبحان الذي أخبرنا بهذه الحقيقة الكونية قبل اكتشاف الإنسان لها بألف وأربعمائه سنة، فشبه الذي يعرج في السماء بمن سكر بصره فلم يعد يرى غير ظلام الكون الشامل، أو بمن أعتراه شيء من السحْر فلم يعد يدرك شيئا مما حواليه، وكلا التشبيهين تعبير دقيق عما أصاب رواد الفضاء الأوائل حين عَبَروا نطاق النهار إلى ظلمة الكون فنطقوا بما يكاد أن يكون تعبير الآية القرآنية دون علم بها: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾.

باطن الشمس مظلم

نأتي إلى قوله تعالى: ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾. فالتعبير اللغوي لـ﴿ظَلُّوا﴾ يشير إلى عموم الإظلام وشموله وديمومته بعد تجاوز طبقة النهار إلى نهاية الكون. ومن الأمور التي تؤكد ظلمة الكون الشاملة أن باطن الشمس مظلم تماما على الرغم من أن درجات الحرارة فيه تصل إلى خمسة عشر مليون درجة مئوية أو يزيد، وذلك لأنه لا ينتج فيه سوى الإشعاعات غير المرئية من مثل أشعة جاما، والأشعات فوق البنفسجية والسينية. أما ضوء الشمس فلا يصدر إلا عن نطاقها الخارجي فقط والذي يعرف باسم "النطاق المضيء". ويؤكد هذا المعنى قَسَم الحق ﷻ -وهو الغني عن القسم- بالنهار إذ يجلي الشمس أي يكشفها ويوضحها فيقول ﷻ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾(الشمس:١-٤) أي إن النهار هو الذي يجعل الشمس واضحة جلية لأحاسيس المشاهدين لها من سكان الأرض.

وكذلك في إشارة الآيتين الكريمتين إلى الرقة الشديدة لغلالة النهار وذلك في قول الحق ﷻ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا..لَقَالُوا..﴾ بمعنى أن القول بتسكير العيون وظلمة الكون الشاملة تتم بمجرد العروج لفترة قصيرة في السماء، ثم تظل تلك الظلمة إلى نهاية الكون، وهنا تتضح روعة التشبيه القرآني في مقام آخر يقول فيه الحق ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾(يس:٣٧)، حيث شبه انحسار طبقة النهار البالغة الرقة من ظلمة كل من ليل الأرض وليل السماء بسلخ جلد الذبيحة الرقيق عن كامل بدنها، مما يؤكد أن الظلام هو الأصل في الكون، وأن النهار ليس إلا ظاهرة نورانية عارضة رقيقة جدا، لا تظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، وفي نصفها المواجه للشمس في دورة الأرض حول نفسها أمام ذلك النجم، وبتلك الدورة ينسلخ النهار تدريجيا من ظلمة كل من ليل الأرض وحلكة السماء كما ينسلخ جلد الذبيحة عن جسدها.

وفي تأكيد ظلمة السماء يقرر القرآن الكريم في مقام آخر قول الحق: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾(النازعات:٢٧-٢٩) والضمير في ﴿أَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ عائد على السماء، بمعنى أن الله تعالى قد جعل ليل السماء حالك السواد من شدة إظلامه، فهو دائم الإظلام، فيصفه ربنا ﷻ بقوله: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي أظهر ضوء شمس السماء لأحاسيس المشاهدين لها من سكان الأرض بالنور والدفء معا في أثناء نهار الأرض، والضحى هو صدر النهار حين ترتفع الشمس ويظهر ضوؤها جليا للناس، بينما يبقى معظم الكون غارقا في ظلمة السماء.■

(*) أستاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.

قلب نبض بالحب الإلهي

يونس أَمْرَهْ

ونظرته إلى الإنسان



أ.د. الصفصافي أحمد القطوري*

عاش يونس أمره ما ينوف على سبعين سنة. وهذه المدة وافقت السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر وبدايات القرن الرابع عشر، فترة القلاقل والاضطرابات في حياة الأناضول وتاريخه.

كانت الهجمات المغولية الكاسحة والمتتالية تهدم وتحطم النظم القائمة، والإمبراطورية السلجوقية في النزع الأخير تتهاوى داخليا وخارجيا. القلاقل والعصيان يشمل كل عشائر الترك والتركمان على حد سواء. بصيص الأمل وشعاع النجاة يتركز فيما أبداه العلماء والمتصوفة والدراويش الذين كانوا بين الجموع البشرية الوافدة من أواسط آسيا أمام الجحافل المغولية، بحثا عن الاستقرار في الأناضول والرغبة في النجاة. وإبان هذا العصر المتلاطم بتيارات الفكر المتصارع، والذي تسوده القوة والقنص والسلب والطمع، كان المسرح مهيأ لظهور بطل. ولكنه بطل من نوع جديد، بطل يسعى للاستقرار والتوطن، بطل يسعى لامتلاك مفردات حضارية جديدة تتواءم مع العصر، حضارة الزرع والنماء. في هذه الأجواء سطع شمس الشاعر يونس أمره.

يونس أمره، شاعر شعبي وصوفي. لا نعرف بالضبط

تاريخ ميلاده، وإن كانت وفاته سنة (٧٢٠هـ/١٣٢١م) عن عمر ناهز السبعين. ووفقا لآخر ما وصل إليه الباحثون الأتراك، فإن يونس أمره ولد وعاش ومات ودفن في قرية تسمى "صارِي كُويْ"، وهي تقع في المنطقة الممتدة فيما بين إقليم "بورصوق" و"سقاريا"، وأنه تجول في كل مناطق الأناضول وسوريا وأذربيجان، وأنه كان درويشا لشيخ يدعى "طابطوق أَمْرَهْ" في منطقة سقاريا. وقد صرح يونس أمره في ديوانه أنه ينتسب لهذا الشيخ وأنه تلقى عنه الفيض لسنوات طويلة.

إن الشعب التركي المتدين نظر إلى يونس أمره كدرويش من الصالحين الواصلين أو كبطل ملحمي؛ فكما أقام له مدفنا في "صاري كوي"، فقد أقام له أضرحة أخرى في أماكن مختلفة كثيرة. وبعبارة أخرى، فإن الكل أراد أن يدّعيه لنفسه ويجعله بمنطقته. وقد أثبت الباحثون الأتراك بالوثائق التي استنبطوها من ديوان الشاعر، ومن كتابه المسمى "الرسالة النصْحية" أنه مدفون بقرية صاري كوي.

بيئته الحضارية

إن مشاعر الإنسان وتفكيره، يتشكلان تحت تأثير البيئة والمحيط الحضاري الذي يعيش فيه. وإذا كانت الحيوانات قد احتلت مكانا بارزا كرمز في الأعمال الأدبية التي تحكي حياة التنقل والترحال في الأدب التركي القديم، مثل "ملحمة أوغوزقاغان" وكتاب "حكايات دادا قورقوت"، فإن النباتات قد تصدرت الرموز المستخدمة في الأعمال الأدبية التي ظهرت في البيئة الزراعية المستقرة. فالنبات تابع لقوانين الطبيعة أكثر من تبعيته لإرادة الإنسان وقدرته ومهارته. فالإنسان أمام عوامل الطبيعة سلبي لا يرى مسبباتها بعينه المجردة، بل يراها بالعين ويحسها بالفؤاد.

من هذا المنطلق، هناك تضاد عميق وفوارق شاسعة بين شخصية "البطل" في الحضارة الرعوية، وشخصية الدرويش الولي المتسامي في الحضارة الزراعية. الأول، تسيطر عليه القوة المادية؛ أما الثاني، فتسيطر عليه القوة المعنوية. ولقد استغرقت عملية الانتقال من النموذج الحضاري الرعوي إلى النموذج الزراعي المستقر زمنا وجهدا كبيرين.

اعتنق الأتراك الإسلام، واستقر في نفوسهم ووجدانهم الفكر الصوفي، فسيّروه جنبا إلى جنب مع فكر الجهاد والفتح في سبيل نشر الدين الذي تمثلوه. وما الحضارة العثمانية إلا نموذج ملموس للمزج بين التصوف والفكر العالمي المعتمد على الدين. وكانت شخصية الفاتح "الغازي" و"الولي"، أهم شخصيات المجتمع العثماني. الأول يقوم بالفتح، والثاني يجعل الاستقرار والعيش على مبادئ الدين الجديد شيئا ممكنا ويعمر المناطق المفتوحة ويجعل الإقامة بين ربوعها شيئا محببا إلى النفس بما يزرعه من رياض وبساتين.

لقد كان للمتصوفة دور ملحوظ في عملية التوطين والاستقرار. فيونس أمره كغيره من مئات الدراويش والآخِيان (الفتوة)، كانوا من ذلك النوع الذي يطلق عليه درويش (Kolonizatör)، أي، الدرويش الإيجابي الذي يبني ويعمر. وهذا ما يجعل الباحثين ينظرون إلى هذه الفترة على أنها مرحلة اجتماعية مهمة؛ حيث كان هؤلاء الفتوة والدراويش، يختارون الأماكن الموحشة والخاوية ليقيموا فيها الزوايا والتكايا، ويحولونها بأيديهم إلى أماكن مأهولة ومسكونة.

كان التراث الشعري الشعبي -قبل التوطن والاستقرار- يمجد البطل المهاجر، والمسمى في ذلك التراث بـ"Alp tipi"، وكان جلّ همه هو الاهتمام بالحيوان تدجينا واستئناسا. فبعد الانتقال إلى حضارة القرية والمدينة، احتلت عناصر الطبيعة من تربة وماء ونبات محل العناصر الحيوانية.

وكانت رؤيا الغازي عثمان (مؤسس الإمبراطورية العثمانية) التي تجسد له فكرة امتلاك العالم، كانت عبارة عن شجرة مباركة تخرج من صلبه؛ حيث تقول الرؤيا: "وما إن دخل البدر في أحضان الغازي عثمان، حتى نبتت من أحشائه شجرة تظلل العالم بظلها، وتحت ظلالها تظهر الجبال وتُرى، وتتدفق المياه من تحت جذورها، ومن هذه المياه يشرب البعض، والبعض الآخر يسقي الرياض والبساتين، وتتدفق الغدران".

فالشجرة هي رمز لحضارة التوطن والاستقرار، ومناقبُ أولياء الأناضول مليئة بالأشجار وعيون الماء والرياض والبساتين. ويونس أمره يعقد صلات حميمة بين الإنسان والعناصر النباتية، فيجعلهما يتحادثان ويتحاوران. الوردة عنده هي رمز الجمال ورواء المعشوق، وبهذا الرمز يربط بين الحب والسلام اللذين تنعقد وتتأسس عليهما نظرته تجاه العالم والإنسان. والوردة عنده لا تعيش وحدها، بل في البساتين، حياتها مرتبطة بالماء، وتستمد من التربة النماء. والله هو المحبوب وهو الروضة التي فيها حياته. فيناجي قائلا:

لأصِلْ ولأكُنْ صَفيَّ ذلك الصديق

وردةً متفتحةً فلأكُنْ،

وبلبلاً غريداً فلأكُنْ

ومقامي في روضة الحبيب فليكُنْ...

إذا ما تناولنا المحيط الذي عاش فيه يونس أمره بشكل رمزي، وجدنا أن عالمه الروحاني هو ديار مليئة برياض الرياحين والورود، وفي هذه الأبيات يشبّه الشاعر نفسه بوردة تحترق طوال العام بنار العشق المتقد. إن وردة العشق هذه تنمو، وتترعرع طوال العام:

في أَتون نار العشق أتقد،

كلما زاد احتراقي،

تضوع شذي

ولن أذبل أبدا...

مشربه السلوكي

إن يونس أمره الذي يبدأ به الشعر الشعبي الصوفي، أي شعر التكايا، نجد أشعاره انصهارا لتيارات الشعر التركي، أي إنها مزج بين شعر الديوان وشعر التكية والشعر الشعبي. فهو شاعر ولي من أولياء الله الصالحين، ومن الذين وصلوا إلى قمة الهداية. إنه عاشق إلهي ترنم بالحب الإلهي. ومع أنه استشف فلسفة التصوف من "مولانا جلال الدين الرومي"، غير أنه لم يكن مولويا. وإنه نجح نجاحا كبيرا في تبسيط ونقل هذه الفلسفة ونظرتها إلى الحياة، إلى الجماعات الشعبية الواسعة، بلغته الراقية السلسة وبطريقته وأسلوبه الخاص به. وقد تناول في أشعاره بصفة عامة، الحياة والموت والآخرة والحب الإلهي والنزعة الإنسانية الخالصة. كان يونس أمره ينطلق في كل ذلك بفكر حر واضح، لا يهتم بالشكل بقدر اهتمامه بالمعنى والجوهر. إنه يركز على فلسفة التوحيد في أشعاره و لم يكن في يوم من الأيام سوى عاشق إلهي، تغنى وصدح بهذا الحب وكثر إنشاده، بل هو بلبل صداح يتنقل بين الورود والرياحين، يتنسم تلك الرياحين ويجعلها تسبّح الخالق في ترانيم شعرية عذبة المذاق فواحة الرائحة.

منهجه في التفكير

يتضمن ديوان يونس أمره كثيرا من النماذج الشعرية التي تدل أصدق دلالة على نشأته الريفية. فعندما يتحدث عن عواطفه أو أفكاره، كثيرا ما يستخدم رموزا وتشبيهات وكنايات مستقاة من حياة الزرع والبستنة وإنماء الرياض والحدائق، أي إنه ينظر إلى نفسه أولا وإلى البيئة المحيطة به ثانيا:

قد عبرنا تلك الجبال،

والوهاد، والبساتين المواجهة،

بالصفاء، والسلامة،

فالحمد لله...

فالعبور معتمد على الصفاء والسلامة والحمد. وإطار البيئة المحيط جبال ووهاد وبساتين ناضرة، كلها ممزوجة بالسلامة والصفاء ويتبع ذلك "الحمد لله". والإنسان عنده ما لم يكن عاشقا محبا، فهو يستحق القطع والحرق كالشجرة الجافة التي لا تثمر:

من لا يحب فإنه لا يسجد،

ولا يعرف قلبه الإيمان،

الإنسان الذي لا يحب،

يشبه شجرة

وعندما لا تثمر الشجرة،

لا تنحني هامتها...

إذن، فبعد العبور المعتمد على السلامة والصفاء والحمد، يأتي التطهر بالمعاناة ونار الحب والفناء.

ويتساءل الشاعر، أين توجد النيران؟ وما لم توجد فما العمل؟ لا بد من اللجوء لموقد آخر، لا بد من المرشد العارف. يرسم يونس أمره الطريق، ويخط المنهج لمن يريد أن يكون درويشا حيث عليه أن يتوسل بست مراحل:

عليه أن يدع الشراب،

أن يتجرع السم،

أن ينزع قلبه من الدنيا بيمينه،

أن يحصد الشعير،

عليه أن يخلط دقيقه بالرماد،

وأن يجففه في الشمس...

وعلى من يصبح درويشا أن يعي ما حوله، ويفكر في جبلته وكيفية خلقه. فالماء والتراب هما عصب القرية. وإذا كان فلاسفة العصور الوسطى جعلوا الإنسان وسائر الموجودات مكونة من أربعة عناصر: النار والهواء والتراب والماء، فهو أيضا يعتقد أن لهذه العناصر تأثيرا كبيرا على تعيين مزاج الإنسان وشخصيته. فالنار والهواء هما تجسيد للصفات السيئة في الإنسان، كالهدم والحرق والتخريب. أما التربة والمياه فهما مبعث الخير والنماء دائما في الإنسان. إذ يقول:

جاءت مع الصلصال أربع صفات:
الصبر، وحسن الطبع،
والتوكل، والمكرمة.
ومع الماء نبعت أربع خصال:
الصفاء، والسخاء،
واللطف، والوصال.
ومع الرياح هبت أربعة أهواء:
الكذب، والرياء،
والخسة، والهوى.
ومع النيران شبت أربعة مظالم:
الشهوة، والكبر،
والطمع، ومعها الحسد...

يصور يونس أمره هؤلاء المنتسبين إلى النار والهواء على أنهم سفكة للدماء، محبّون للحرب والدمار. وعلى النقيض من هؤلاء يمتدح أخلاقيا أهل التراب والماء، فمنها خُلقنا وإليها نعود. فمن صفات هؤلاء الصبر والتوكل على الله ولين الجانب والسخاء والمكرمة. والدرويش هو من تتجلى في ذاته هذه الصفات. يبدأ يونس بنفسه فيدعوها إلى التمرغ بالتراب:

يونس، أيها المسكين!
لا تتكبر على الواصلين،
وكن ترابا.
فالكل منبته من التراب،
والتراب روضة لك...

ثم إن يونس الفلاح القروي هو كغيره من الزراع، لا يثق بقوة غير قوة الخالق سبحانه. فالحياة في القرية هي الصبر والانتظار. فالفلاح يبذر البذور في أعماق التربة ولا يملك سوى الصبر والانتظار. فبعض البذور تنبت وتثمر والبعض يفنى ويبتلعه الفناء. وما حياة الإنسان عند يونس أمره إلا كذلك:

مسكين ابن آدم،
شبّهوه بالحصاد،
فهو كالبذور المنثورة،
بعضه يفنى،
وبعضه يترعرع...

وأشد ما يلفت نظر يونس هو دوران الفلك وتتابع المواسم الأربعة، وما يتبع ذلك من تأثير على حياة النباتات. في الموسم الذي تصل فيه النباتات إلى كهولتها، وما إن تسلم الروح بالحصاد، حتى يكون ذلك إيذانا لبدء حياة جديدة في موسم جديد. ومن ذلك تَولد فكر الفناء والخلود لدى يونس أمره. والإنسان عنده كالنبات وسائر الكائنات، في دوران ودورات متتابعة. وأمام هذا الدوران والتتابع، ومن متابعته ومشاهدته، يتولد الإيمان لدى الإنسان فيسمو. وهذا ما يميز الإنسان عن سائر الكائنات.

فحياة الكون كلها قائمة على مبدإ الدوران. ذلك أن كل شيء في الكون يدور؛ الذرات تدور، بل الإلكترونات والبروتونات، والنيترونات الموجودة فيها تدور. ويعتمد الإنسان في حياته ووجوده على دوران الذرات المختلفة التي تتكون منها عناصر جسده الأساسية، وعلى دوران كرات دمه، وعلى خلقه من تراب وعودته إليه، فهذا نوع من الدوران. وتعتمد معيشة الإنسان على دوران الفصول وتتابعها. والعاقل هو من يدرك بعد تتبع وتدبر... ومن هنا يتولد الإيمان. وفي هذا يقول:

قطّعَ بَردُ الشتاءِ الأَوْصالَ،
وهبّتْ نسائمُ الربيع العليل من جديد.
وفجأة، لفّت رحمةٌ شاملةٌ المكانَ،
وقدم الصيفُ المبارك من جديد.
فاكتسى العالم من خزائنه خلعا جديدة،
ووَهب النباتَ حياة جديدة.
لم تأت كلمتي،
من أجل الصيف، أو الخريف،
بل من أجل المعشوق من جديد.
أتوسّل للسلطان
أن يهب الحياة،
للذين أفناهم من جديد...

فكره ورؤيته

لقد كان يونس أمره أميا، ولكنه كان ملهما إلهاما إلهيا في كل ما قاله من شعر. وهو نفسه يقول:

لا علم عندي،
ولا إحاطة،
ولا قدرة لدي،
ولا طاقة،
ولكن عنايتك يا إلهي،
هي التي أنارت وجهتي.

ومن هذا الضياء
تتنــزل الأشعة النورانية،
لكل كلمة في الأرض أو في السماء،
ويونس المسكين ليس له حظ
من علم القراءة والكتابة...

فهـــو إن كان ينفي معرفته بالقراءة والكتابة، إلا أنه صاحب معرفــة وعرفان. وكان مصدر هذا العلم والمعرفة هو المســـجد والمدرسة، وجاء ذلك عن طريق العبادة:

عبَدتُ كثيرا؛
في المسجد، والمدرسة،
واحترقت بنار العشق،
فتوهجت معرفتي،
وما وجدته في قلبي،
هما العلم والوصول...

إن يونس الذي نلمس في أشعاره الكثير من الاقتباسات القرآنية ومـــن الأحاديث النبوية، والذي كان يفهم الفارســـية بالقدر الذي يجعلـــه يفهم مولانا جلال الدين الرومي، لا بـــد أنه قد تعلم علوم عصره. ولكن العلم الذي كان ينكره ولا يعترف به، هو العلم الذي لا يصل بصاحبه إلى معرفة الحق ﷻ، العلم الذي يحول دون الوصول إلى الحقيقـــة وإلى الموجود المطلق. تلـــك الأمور لا تتأتى بالعلم، بل بالعرفان، ويتم الوصول إليها بالحـــب الإلهي. وكان يتعرض دائما للجهلاء وينفر منهم، ويبغض إلى النفوس الجهل والجهلاء، فيقول:

لكي تكون يونسيا،
فابتعدْ عن أهل الجهل؛
فكم من المساوئ،
تصيب المؤمن من الجاهل...

وكان يونس أمره يكره الإنســـان الذي لا يحب والذي لا ينبض قلبه بالحب والهوى، كما يوصي بالنظر إلى كل الناس بعين المساواة. ومن يفرق في النظر يعتبر عاصيا، فالكل عنده سواء:

إن من لا ينظر بعين المساواة،
إلى شعب الاثنين والسبعين أمة،
فهو في الواقع عاص،
حتى وإن كان ذا عِمّة وجبّة...

إن يونس أمره يحب كل البشـــر ويراهم جميعا سواسية. وإنه كدرويش مسلم ينظر إلى كل الكائنات بنفس النظرة الإنسانية:

لم أُخلق من أجل الخصام،
بل خُلقت من أجل الحب،
القلب هو بيت الصديق،
وقد خُلقت من أجل القلب...

القلب عند الدرويش يونس هو المكان الأعلى والأسمى، ولما كان القلب هو مكان التجلي الإلهي، فعلى المرء أن يطهر قلبه من كل الرزايا، حيث يقول:

القلب هو عرش الحق،
نظرَ الحقُّ إلى العرش،
من تطهّر قلبه،
فما أسعده في الدارين...

إن القوة المعنوية التي تســـيطر على أشعار يونس أمره، ليست بخارج الإنسان، إنما بداخله. ولذلك كثيرا ما كان يدعو الإنسان إلى العـــودة إلى نفســـه، حيث يجد فيها الأدلـــة على وجود الله ﴿وَفِي أَنْفُسِـــكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات:٢١). والشخصية المحببة إلى نفسه، هي شـــخصية الدرويش الباحث في ذاته، الراغب في المساواة والحب والسلام والصداقة. والدرويش الباحث عن نفسه عنده، هو شـــجرة مثمرة يستفيد كل شخص من ثمارها، وحتى أوراقها بلسم لكل ذي داء عضال:

مِن فروعه يقتات الشارد والوارد،
أوراقه دواء لكل ذي داء،
وفي ظلاله يتفيأ كل ذي شأن عظيم...

ويصـــل يونس أمـــره إلى قمة روعتـــه الفنيـــة والصوفية، بـــل والرمزيـــة في آن واحـــد، إذ اســـتنطق الأزهـــار والـــورود، وأخـــذ يحاورهـــا ويجعلهـــا تســـبح الخالـــق:

سألت الزهرة: وما الوردة بالنسبة لكِ؟
قالت الزهرة: أيها الدرويش،
إن الوردة عَرَق محمد ﷺ.
سألت الزهرة أيضا،
لـــمَ عنقك مائل؟
قالت الزهرة: أيها الدرويش،
قلبي نحو الله قائم...

وكان يونس أمره يرفض رفضا تاما المظهرية والخيلاء. وعلى الدرويش الحق أن يترك كل وسائل الخيلاء:

ليست الدروشة،
بالتاج والخلعة،
بل الدرويش المفعم قلبه بالحب،
ليس بحاجة إلى الخرقة، أو التاج...■

(*) جامعة عين شمس / مصر.

الفن الإسلامي والتعبير عن المطلق

د. مصطفى عبده*

لقد فهم الفنان المسلم وقوع التحريم على الفن التجسيمي، فنحا منحى تجريديا، وذلك من خلال الزخارف لتحقيق الانسيابية في الخطوط، والاتزان الهندسي، والتوافق اللوني، والتنغيم الموسيقي، وهي المقدمة اللازمة لفن تجريدي أصيل يبحث عن الأصالة.

وقد توقف التعبير الفني مؤقتا في صدر الإسلام للأسباب التالية:

أ- كان التلقي القرآني قويا حيث بهرهم النور القرآني وأوقفهم عن التعبير مؤقتاً. وهي فترة الدهشة التي تسبق الإنتاج الفني.

ب- كان الرصيد الثقافي رصيدا جاهليا، وهذا الرصيد لا يصلح للدين الجديد والحياة الإيمانية الجديدة، فلا بد إذن من وقت لاستجماع رصيد جديد يصلح للحياة الجديدة لبعث أمة جديدة لها رسالة حضارية.

جـ- لم يزاول العرب الفن التشكيلي من نحت وتصوير بحكم مواده الجامدة في المكان. وبحكم ترحلهم الدائم كان فنهم زمانيا، فمارسوا فن الشعر والفنون التشكيلية الأخرى التي تنسجم مع طبيعتهم البدوية. ولهذا لم يمارسوا فن النحت والتصوير. وكل ما كان ينحت كان ينحت كصنم معبود.

د- أخرج الإسلام الفن من دُور العبادة إلى الطبيعة الرحبة والكون الفسيح، وحوّله من خدمة الآلهة إلى خدمة التدين في الإنسان؛ فكان تأثير التحريم قويا على الفن المستخدم كأداة لوثنية الآلهة المعبودة في تلك الدور التعبدية، فأوقف هذا النوع من الفن الذي يخدم العقيدة الوثنية.

هـ- انشغل المسلمون بالفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة والتصدي للوثنية، وقد أسقط



المسلمون انفعالاتهم النفسية في الدعوة والجهاد والاستشهاد.

و–كان الفن جنينا في رحم الأمة الإسلامية، فكان لابد من ولادة جديدة لفهم حضاري جديد من خلال التصور الإسلامي للوجود.

التوجهات الإيجابية للفن التشكيلي

١–الخط العربي: اهتم المسلمون بالكتابة وأكبروا القلم وقدسوا العلم. وأول آية نزلت في القرآن الكريم هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(العلق:١). ويقسم الله بالقلم في قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(القلم:١). وكان الخط أول مظهر من مظاهر الفن والجمال الذي عني به العرب بعد إسلامهم حيث كان ذلك في تجميل وتجويد الخط العربي وتحريكه. وقد سما الخط إلى مرتبة عالية لتعامله مع حروف القرآن منذ نزوله، فتعاملوا مع الخط بقدسية حيث زينوا به المصاحف، وزينوا أماكن العبادة باللوحات الخطية. وقد أحيط الخط الكوفي بهالة من الإكبار، وقد ظلت الأغراض اليومية تكتب بالخط النسخي والرقعة، وبرز الخط الديواني للدواوين الحكومية تماما كالخطوط الهيروغلوفية في مصر القديمة.

كان الخط العربي وسيلة للعلم فأصبح مظهرا من مظاهر الجمال، وقد حرك الفنان المسلم الخطوط الجافة وأضاف إليها الزخارف حتى غدت لوحات فنية. وقد استخدمت الكتابة في قوالب زخرفية محل الصورة وعكست نوعا من التعبير له خصائصه التي تتيح له التعبير عن قيم جمالية ترتبط بقيم عقائدية.

ولقد ضمّن الفنان المسلم كل طاقاته عندما كتب الآيات القرآنية على الجدران والواجهات والعقود والأبواب والمنابر ليحمل في نفس الوقت شكلا فنيا على أسس جمالية رياضية. وقد تجاوز الخط العربي الديار العربية والديار الإسلامية. فقد استخدمه الفنان "جيوتو" في زخرفة لوحاته، واستخدمه الفنان الألماني "هانس هولبين".

ونجد أن الخط العربي يأخذ مكانه اللائق في الفن من تجويد وتحسين، وفي استخدامه لأشكال تجريدية؛ فمثلا الخط عند "شبرين" معماري التكوين يتقبل كنمط مرئي ومصور، ويعبر عن أسلوب رمزي تجريدي عن الحالات العقلية والعاطفية. فالمدلولات الموسيقية النطقية ودرجات الحروف الصوتية للحرف الواحد وتركيبها تأتي في تناغم مع الأحاسيس الداخلية للنفس البشرية؛ فتنطق الحروف –ليس نطقا لغويا فقط– بل نطقاً

إستاطيقيا من خلال تناسق وترابط الحروف العربية في تجريدات لانهائية.

٢-الزخارف الإسلامية: فن الزخرفة فن قديم قدم الإنسان. إلا أن الفن الإســـلامي أعطى لهذا اللون من الفن كينونة فحور الأشكال وجردها لإحداث الحركة التي تعطي طابع الاستمرارية وتوحي بلانهائية الأشــكال المتكررة لتحقيق الانسيابية. وبتأثير التحـــريم على فن "النحت والتصوير" اتجه الفن الإســـلامي نحو "الزخرفة"، فأنشأ زخارف قائمة بذاتها وزخارف تحتويها الأشكال.

والزخرفة الإســـلامية عبارة عن وحدات هندسية أو قل إنها وحـــدات رياضية يراد بها التفكـــير الرياضي للوصول لحقيقة لا تتعلق بمكان معـــين ولا بزمان معين، فحقيقة المثلث أو المربع أو الدائرة تظل حقيقة عقليـــة لتصديقها للمعاني العقلية في تجردها وانطلاقها.

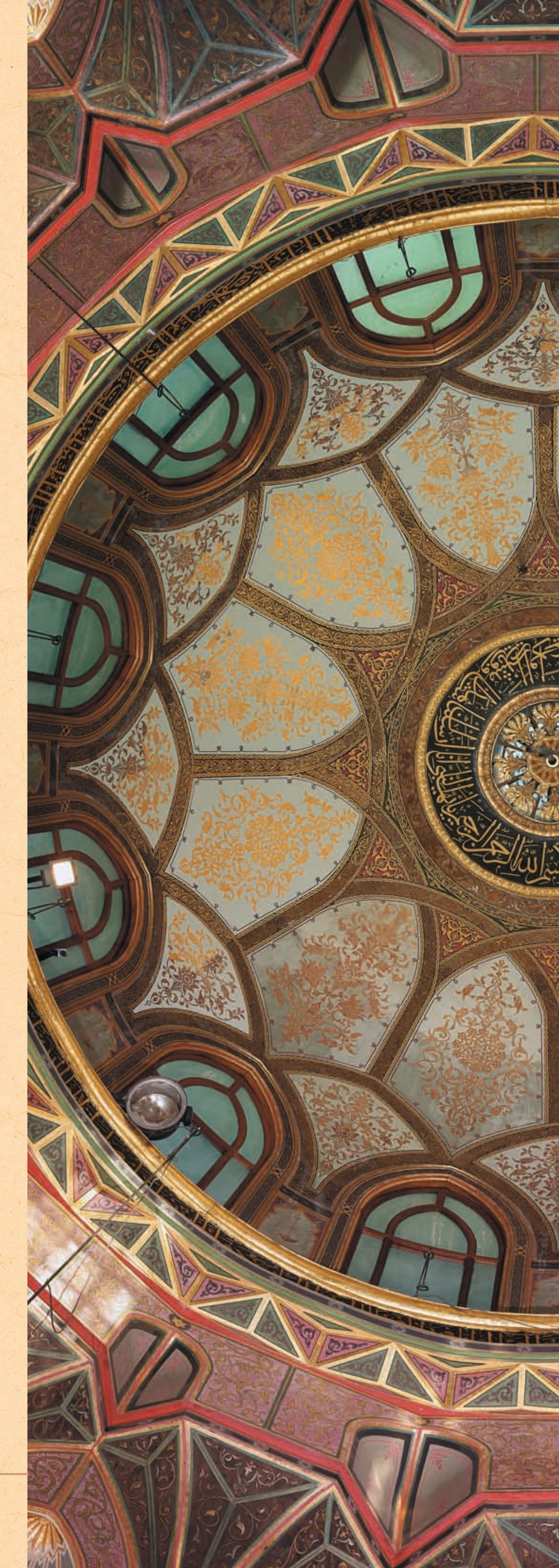
وقد أخذ الفنان المســـلم من الطبيعة من شجيراتها وأوراقها وأزهارها وحيواناتها بعد تحويرها لتعطي الحركة الداخلية في تداخل الأشكال الهندسية، فتدرك العين تلك الحركة من خلال الخطوط المتداخلة. وتلك الموسيقى الصادرة عن الأشياء تعبر عنها الحركة الزمانية التي تمثل الديمومة والاســـتمرارية في حركاتها اللانهائية.

فليس الفن الإبداعي براعة في تصوير المناظر بالمحاكاة القائمة على الدقة والمقدرة على إيجاد الصلة بين العين والأشياء فقط، بل الإبداع الفني الذي يصل حد الروعة الجمالية، وليس الفن في نقل ما في الطبيعة فقط بل البحث عن طبيعة الأشياء.

وقد تميزت الزخرفة الإســـلامية بجوانـــب تكمن في العلاقة القائمـــة بين الوحدات الزخرفية المتكـــررة والمتنوعة في تكاملها الهندسي واتســـاقها الفني. فالخطوط الهندسية والنظرة الرياضية لعالم الأشياء، هو تجريد ذهني للجزئي ليصبح كليا. ولهذا أمكن للوحدات الهندسية المتناهية لتكوين أشكال لانهائية، وبهذا يلتقي فن الأرابسك مع الفن التجريدي في مجال الانطلاق للتعبير عن المطلق.

٣-العمارة الإسلامية: تأثرت العمارة الإسلامية بالحضارات التي احتكت بها والبلاد التي فتحتها، فتأثرت بالأساليب البيزنطية والهيلينية والساســـانية والإيرانية، بالإضافة إلى الرصيد الحضاري للحضارة العربية في الجزيرة العربية. ورغم هذه التأثيرات تلحظ الوحدة في الفن الإسلامي على الرغم من تعدد المراكز وبعد المواقع. ويرجع ذلك لوحدة المنبع والأساس الفكري للحضارة الإسلامية.

وقد تعامل المسلمون بذكاء حضاري مع الثقافات الجديدة، إذ أبقت عليها وأضافت إليها و لم تحاول طمس تلك الثقافات، بل



سمت بها ووجهتها الوجهة الصحيحة من خلال أرضية قوية تتجه إلى هدف واحد. ولامتناع الصور والتماثيل في العمارة الإسلامية خاصة في المساجد، استخدم المهندس الإسلامي الأعمدة المتنوعة وأدخل الفسيفساء والزخارف النباتية والهندسية وحورها، واهتم بالتصميم المعماري. فالعمـــارة تعكس المحتوى الحضاري لأي تكتل حضـــاري، والعمارة قوة حضارية وهـــي كتاب مفتوح تسجل فيه الشعوب تاريخها.

والعمارة "فن"، والفن أصدق أنباء التاريخ، لأنه الكاشـــف عن حقائـــق التاريخ المنـــزوي. والعمارة "إبـــداع"، والإبداع خصيصة إنســـانية اختص الله به الإنســـان دون سائر الكائنات، فبيوت العنكبوت والنمل وخلايا النحل صادرة عن عقل غريزي غير متطور من خلال ذاكرة لحظية، وهكذا ستظل تلك البيوت والخلايا كما كانت عليها خارجة عن دورة الزمن؛ إلا أن الإنسان له عقل "إبداعي" متطور من خلال ذاكرة منســـابة لإبداع يسير مع الزمان. والعمارة "جمال"، لأن العمارة تحاول تجميل الفراغين الداخلي والخارجـــي ليصلح للحياة الحضاريـــة. إذن العمارة، فن وإبداع وجمال. وبالعمارة بنى الإنســـان حضارته بفضل ما استحدثه من عمران من خلال "عقله الإبداعي".

وقد سجلت العمارة الإسلامية، مسيرتها الحضارية على العمائر الإســـلامية من خلال طُرزها المختلفة، إذ نجد الوحدة الحضارية التي امتدت من أقصى بلاد المغرب العربي إلى أقصى بلاد الهند، من خليج البنغال إلى جزيرة إيبريا. فإن مئذنة جامع "الكتيبة" بمراكش ومئذنـــة جامع "قطب زادة" بدلهي تبـــدوان أمام المتتبع كبروج للحدود الإسلامية، وإن كانت هذه الحدود قد امتدت أبعد من ذلك. وحين نعلم أن هاتين المنارتين قد شـــيدتا في زمن واحد، فبإمكاننا أن نعتبرهما بمثابة رمزين جميلين لوحدة العالم الإسلامي.

والفنان المســـلم لا يفرق بـــين العمائر الشـــاهقة والتحف الصغيرة، ويســـتوي في ذلك القصر المنيف والكوخ الحقير، وآنية الذهب والطين، ولم يفرق بين تحفة غني وســـلعة فقير، هدفه هو تجميل الدنيا في شـــتى زواياها ومرافقها لتعطي جمالا ذاتيا يشيع في النفس الغبطة وفي القلب الرضى، ويشهد لمبدعيه بحس جمالي عميق وللمتذوقين بحس تذوقي نقدي، فتحول المتلقي السلبي إلى متذوق إيجابي يشارك في العملية الإبداعية في خدمة الإنسان.

وهكـــذا تحول الاهتمام بالفنـــون التطبيقية، وتحول الفن إلى خدمة الحياة الإنسانية، حيث كانت الروعة في الصناعات الدقيقة الـــتي غدت تحفا فنية، ممـــا جعلهم يتكـــرون ويهتمون بالعمل اليدوي ويقدسونه. فقد كان تحريم استخدام آنية الذهب والفضة دافعا لاكتشـــاف الخزف ذي البريق المعدني. وكذلك كان تحريم لبس الحرير -للرجال- دافعا لاستخدام الزخرفة النسجية المسماة بـــ"التابســـتري". وهكذا فتح الباب واســـعا أمام الفنانين لكي يبتكروا ويبدعوا، اعتمادا على العمل الفني المتقن المجود لتحقيق القيم الجمالية مع القيمة النفعية. وبهذا دخل الابتكار مجال التصنيع وتدخلت الصنعة في مجال الابتكارات.

من أهم المجالات التي أثرت في المسيرة الفنية للفن الإسلامي بصفة غير مباشـــرة، هي "النقابات الإســـلامية" و"الحســـبة" و"الوقف". وذلك في مجال مراجعة الأحوال ومراقبتها وترشيدها. فتحســـن الإنتاج الفني وترقـــى، وانحصر التنافـــس في الجودة والأصالة، وكان التعامل شـــريفا تبعا لقول الرســـول ﷺ: "مَن غشَّنا فليس منَّا"، حديث شـــريف نُفّذ بدقة؛ فتحولت الأعمال النفعية والمشغولات اليومية إلى تحف جمالية ترضي الصانع والبائع والمشتري والمشاهد.

الإسلام يحرر الفن من القيود

يقرر بعض من علماء الفلسفة والتاريخ أن الفن قد تحرر من الأسر الكهنوتي بظهور فنون عصر النهضة في أوروبا في القرن الخامس عشـــر الميلادي. إلا أن الحقيقة التاريخية تقول من خلال فلسفة التاريخ أن التحرر الذي كان، كان جزئيًّا وكان التكنيك الفني -وما زال- الموضوع الفني الذي عالجه عظماء عصر النهضة دينيا. ودليلنـــا على ذلك أعمال عظماء عصـــر النهضة أمثال "مايكل أنجلـــو" الذي يمثل "إرادة" عصر النهضة والذي نحت تمثال "داود وموسى" عليهما السلام، والفنان "ليوناردو دافنشي" الذي يمثل "روح" عصر النهضة والذي ظهرت عبقريته في رسم الشخصيات المقدسة. والمصور الشـــاب "رفائيل" الذي يمثل "أسلوب" عصر النهضة والذي لقب بـــ"مصور مريم".

وعليه يمكـــن أن نقرر أن التحرر الكامل للفن كان في القرن السابع الميلادي، عندما حطم الرسول ﷺ الأصنام عند فتح مكة، فتحول الفن من خدمة الآلهة إلى خدمة التدين في الإنســـان. وإذا ما تتبعنا تاريخ الفن نجد أن الفن تلازم مع الإنســـان، وكان الفن يخدم العقائد المنحرفة الوثنية حيث كان يستمد مواضيعه من الدين واســـتمد الدين قوته بالفن، وهكذا كانت العقائد قبل الإسلام وكان الفن. هذا وقد نحت إنسان الكهوف تمثال "الأم المقدسة" وعبدها على أنها الخالقة -لأنها تلد فهي إذن خالقة-. وقد نحت

فنانو العصر الذهبي الكلاسيكي الإغريقي تمثال "فينوس" آلهة الحب والجمال مركزين على مواطن الجمال في المرأة. وقد نحتت الشعوب تماثيل لآلهتهم في الأدوار المتأخرة لعقائدهم المنحرفة في تجسيدهم للآلهة. وهكذا كان الفن يخدم تلك العقائد في تجسيدها للآلهة وفي تكبيل تلك الشعوب وتأكيد هذه العبودية وتوثيق تلك القيود. وقد عبدت هذه الشعوب تلك الآلهة التي تجسدت في أصنام منحوتة، وعبدت عدة أشكال مجسمة تعبر عن رموز "طوطمية" اعتقادا منهم أن الأرواح حلّت بها؛ وعبدت الظواهر الطبيعية ونحتوا لها التماثيل ورمزوا لها بالرموز المجسمة.

وهكذا نجد أن العقائد المنحرفة نحتت التماثيل المجسمة وعبدوها في شكل أصنام تعبد وتقدس، وبقي الفن دليلاً على أنواع العقائد التي كانت تمارسه تلك الشعوب، وكشفت الفنون على مدى انحرافهم العقائدي والسلوكي. وهكذا تقيد الفن منذ أقدم العصور وحتى ظهور الإسلام الذي حرر الفن من تلك القيود التي كبلته وقيدته. وقد حاول الفنان الأوروبي التحرر من هذه القيود والخروج عن سيطرة الكنيسة، إلا أنه تقيد بالقيد الوثني عندما بعث التراث الكلاسيكي الوثني في عصر النهضة، فكانت المواضيع مقدسة وأساليبهم وثنية.

إن العقدية الإسلامية لم تأمر الناس باتخاذ صيغة فنية محددة كما هو الحال في العقائد والإيديولوجيات الأخرى، بل أوقف الإسلام الفن المنحرف عقائديا وسلوكيا ووضع الفن في دائرة الاختيار؛ فكان تحررا للفن وتحررا للفنان، ذلك الإنسان المختار الذي وضع في مكان الاختيار. ودائرة "لا تفعل" أوسع من دائرة "افعل". وقد تحررت المساجد من الصور والتماثيل -إلا أنها كثيرة الزخرفة- وأصبح للعمارة كيانها الخاص. وكذلك تحرر الفن بابتعاده عن التجسيم واتجاهه نحو التجريد وانطلق نحو المطلق واللانهائي. وعمل الفنان المسلم من خلال العقيدة وليس من خلال القيد العقائدي. ولوجود التوازن بين الروحانيات والماديات، تعامل مع الكائنات وطبيعة الأشياء، ونفذ إلى الأشياء الكامنة من الأشياء الكائنة.

وهكذا كان الإسلام محرراً للفن من القيد الوثني والأسر الكهنوتي، ليسمو بالإنسان بتحقيق إنسانيته، ويعمل من خلال التصور الإسلامي للوجود لبناء حضارة جمالية حيث أصبح الفن الإسلامي فنا ذهنيا يحكمه المنطق، وفي نفس الوقت ينطلق إلى عوالم إبداعية سامية.

ولإيجاد فن من خلال التصور الإسلامي فأول الخطوات هو إحياء الفن الإسلامي، الكلاسيكي كأساس يعتمد عليه الفن التجريدي المعاصر لتحقيق الانسيابية من خلال حل مشكلة الزمن في الفن التشكيلي بإيجاد الحركة الداخلية للأشكال الساكنة، وذلك بإنتاج فنون لها موسيقى بصرية تحقق إيقاعات جمالية. فالموسيقى هندسة في الأنغام، والنحت هندسة في الأشكال، والألوان هندسة في الأضواء، والزخرفة هندسة في الوحدات، والخط هندسة في التركيب. وكل شيء قائم على هندسية الأشكال وتنظيم في تركيب الأشياء بنظام وتناسق. ومن هذا النظام المتناسق تتألف الموسيقى، وهي اللغة الفنية التي تبتغيها كل الفنون وتسعى إليها لتنسجم مع الموسيقى الكونية.

فيجب على الفنان المعاصر أن تكون له رؤية أشد وضوحا لما هو كائن لكي يغوص إلى كوامن الأشياء والكشف عن بواطنها، ليدرك الفنان أسرار التناغم والتناسق الكامنين في العالم المرئي وغير المرئي، والمحسوس وغير المحسوس، والمسموع وغير المسموع.

والفن من خلال التصور الإسلامي للوجود ومن خلال تصوره للكون، يحكي عن الموجودات الكونية "الكائنة والكامنة" ليرسمه في لانهائيته وفي ديمومته وفي انسيابه عبر الزمان ليكون فنا خالدا. والفن الخالد هو الذي يعبر تعبيرا صادقا لمعتقد الخلود، والخلود لا تمثله الجزئيات المتغيرة، إنما تمثله كليات الحركة والصيرورة الدائمة من خلال السيال المتدفق. فالذي يقصد الجزئيات ينتج فنا جزئيا متغيرا فانيا. ويكون الفن خالدا عندما يعبر عن قيم ومعتقدات صادقة، ويكون خالدا عندما يقبل الخلود في كلياته المتحركة لا في جزئياته وصفاته المتغيرة، بل في حركته الكلية اللامتناهية والذي يأتي تعبيرا عن عقيدة صادقة في اتصاله بالزمان لا المكان المتغير، وإن اتصل بالمكان فهو اتصال يوحي بخلود هذا المكان. يكون ذلك بتوسيع رقعة الفن ليشمل كل ما هو جميل من خلال قاعدة فسيحة تشمل كل الوجود، لأن الفن هو التعبير الجميل عن حقائق الوجود ليتحدث عن الكون، فيراه خلية حية متعاطفة ذات روح تسبّح وتخشع.

وبهذا تتوسع دائرة الفن من خلال توسيع دائرة الشوق حتى تشمل الأشواق العليا. وهكذا تنسجم رسالة الفن مع رسالة الإسلام الخالدة، في دعوتها للحق والخير والجمال والاستعلاء والاعتدال والنظام، فيكون الفنان مبدعا تقيا، وخاشعا نقيا.■

(*) جامعة النيلَين / السودان.



دع الغيب الذي فيك يتكلم

أ.د. عبد الحليم عويس*

أيها الإنسان (الكون)! ألستَ قسيم الكون؟ وهل يُعقل الكــون إلا بك؟ وهل ينطق إلا بك؟ وهل يذلَّل الكون -بإذن مكون الأكوان- إلا لك.

إيــاك أن تزعم أنك جرم صغير، ففيك انطوى العالم الأكبر. لقــد صنعك الله بيده. ونفخ فيك مــن روحه. فأنت من الروح جئــت، وبالروح تعيش، وبها تصنع كل أمجــادك. فالروح قبل العقل وقبل الجسد، كما أن العقل قبل المادة. وعندما تذهب منك الروح صاعدة إلى بارئها ينتهي كل شيء فيك.

في البدء كانت الــروح. ثم تمضي الحضارة إلى مرحلة العقل وتدخل عالم الأشياء. أما في مرحلة الروح فالغايات قبل الوسائل، والعام قبل الخاص، والمعاني فوق المباني، والأخلاق والمثل والأشواق العليــا فوق القوانين، وفوق المعادلات الدنيوية الوضعية. حتى لو كانت هذه المعادلات في إطــار العدل، فالحبّ والرحمة والإيثار فوق العدل، دون إلغاء العدل.

دع الــروح تعمل فيك متعانقةً مــع الوحي. لأنك -بهما- تصل إلى "إنسانيتك"، وبهما تنطلق إنسانيتك من إسارها فتتفجّر حكمة ونورا.

لســوف يضاء المصباح في داخلك، ســيلتقي فيك الغيب والشهادة، ستنطلق حواسك إلى مناراتها لتضيء جوانب كونك الداخلي، وإشــعاعاتك الخارجية. هنا قــد تتحقق فيك بعض الومضات النورانية الربانية. وقد يلتقي فيك النوران: نور الغيب ونور الشهادة.

ســوف يدخل المصباح إلى مشكاتك. فلا تستطيع الشهادة الواردة إليك أن تطفئ نور الغيب، ولا يســتطيع الغيب الكامن فيك أن يشــلّ فاعلية الشــهادة، بل إنك ســترى الأشياء على حقيقتها، لأنك ســترى بنور البصر والبصيرة، وبالروح والعقل والمحسوس معاً. فكل الطاقات ستتفتّــح، كما تتفتح الزهور في الربيع. وسوف يفوح منك عطر الإنسانية الربانية.

سيفقه قلبك، ولســوف تعجب أن هناك ناساً ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩)، وستبصر عينك الأشياء وما وراء الأشــياء، وســيذهلك أن هناك ناســاً ﴿لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩). وستلتقط آذانك كل أنغام التوحيد المبثوثة في "سيمفونية الكون" فتعرف معنى حفيف الأشجار، وخرير الأنهار والبحــار، وقطرات الأمطار، بل ربما تفهــم منطق الطير، ليس بالشعور السليمانيّ الســاطع، بل باللاشعور الوجداني الخافت. وسوف تدرك أن موسيقى الكون لا تتناشز، بل تتناغم، حتى مع العواصف والرياح. فلكلّ دورُه، ولكلّ إيقاعه ودلالته. وما يظنه بعضهم من تناقض ونشاز إنما يعود إلى أنهم لم يفقهوا جيدا أصول

الإصغاء: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾(الأعراف:١٧٩).

عندما تترك الغيب الذي فيك يتكلم، سوف تتكشف لك ألغاز كثيرة.. سوف يدلك الغيب على حقيقة ما عجزت "الشهادة" عن تفسيره، سوف تزول عقبات الصعود، وسوف يمضي الوعي فيك إلى غايته دون قيود. كيف رأى عُمير بن الحمام ﷺ أكل تمرات تساوي عمرا طويلا، فألقاها ليقطع العلاقة بالمحسوس في ساعة المفاصلة بين الشهادة والخلود. لقد أدرك الحقيقة وأراد سرعة العبور، لأن "الغيب" فيه هو الذي كان يتكلم ويعمل.

فدع الغيب الذي فيك يحمل فطرتك النقية ويتكلم ويعمل... دعه يمرّ، واترك موازينك المحسوسة رويدا، وتمهل، وحاول أن تصعد وتحلّق. ترك أبو بكر ﷺ لأولاده الحصى، وهاجر مع النور إلى الأرض المنوّرة "ثاني اثنين" ليغنم، لأن الغيب فيه كان هو الذي يتكلم. فاترك الغيب يحمل فطرتك ويعمل.

قال حاتم الأصم: "لا تغترّ بموضع صالح، فلا مكان أعلى من الجنة، وقد لقي آدم عليه السلام فيها ما لقي، ولا تغترّ بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبّده لقي ما لقي. ولا تغترّ بكثرة العلم فإن بَلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي، ولا تغترّ برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه"، لأن المهم -قبل كل ذلك- أن يتكلم الغيب الذي فيك، وأن تفقه وتعلم وتقصد أن تعمل.

روي عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا آوى إلى فراشه يقول: "يا ليت أمي لم تلدني"، فقالت له أمه: يا ميسرة إن الله تعالى قد أحسن إليك، هداك إلى الإسلام. قال: "أجل، ولكن الله قد بيَّن لنا أنا واردو النار، ولم يبين لنا أنا صادرون عنها". انظر كيف تكلم الغيب في أبي ميسرة فعرف الفروق بين الورود والصدور.

وقال ميمون بن مهران: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(الحجر:٤٣)، صاح سلمان الفارسي ﷺ ووضع يده على رأسه، وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدرون عليه". فأي غيب مكنون تحرك في سلمان فأبصر المستقبل من خلال ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾(مريم:٧١).

قال عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: "ابْكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلمَ أحدُكم لصرخ حتى ينقطع صوتُه، وصلى حتى ينكسر صُلبه"، وكأنه أشار إلى معنى قوله ﷺ: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً".

ولكن لماذا لا نعلم العلم؟ لأن الشهادة الموجودة فينا وحدها هي التي تتكلم، أما "الغيب" الذي فينا فقد أخرسناه، حتى لا يتكلم.

عندما أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم أشهدهم على أنفسهم. لكن كيف شهد جميع بني آدم على أنفسهم؟ وأيّ بني آدم كانوا، أأبناء الحاضر المخاطب أو أبناء المستقبل؟ وأين كانوا عندما أدّوا هذه الشهادة الخالدة؟ وبأي لغة تكلموا؟ كان "الغيبُ الواعي" الذي فيهم هو الذي يشهد ويتكلّم: "ألستُ بربكم؟" أجاب الغيب الجماعي الكامن فيهم: "بلى".

وهكذا شهدوا على أنفسهم بلغة الغيب الواحدة التي تتكلم دون إرادتهم.. لغة القوة التي لا تحبسها إرادة، ولا يحدها زمان، ولا يحكمها وعي.. لغة الماضي والحاضر والمستقبل: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(فصلت:٢١). خلقكم أول مرة فاعترفتم بربوبيّته وقلتم: "بلى، شهدنا على أنفسنا". وخلقكم ثاني مرة، أعادكم بعد بعثكم الثاني ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فتكلمَت عنكم جلودكم، أنطقها الله الذي أنطقكم أول مرة.

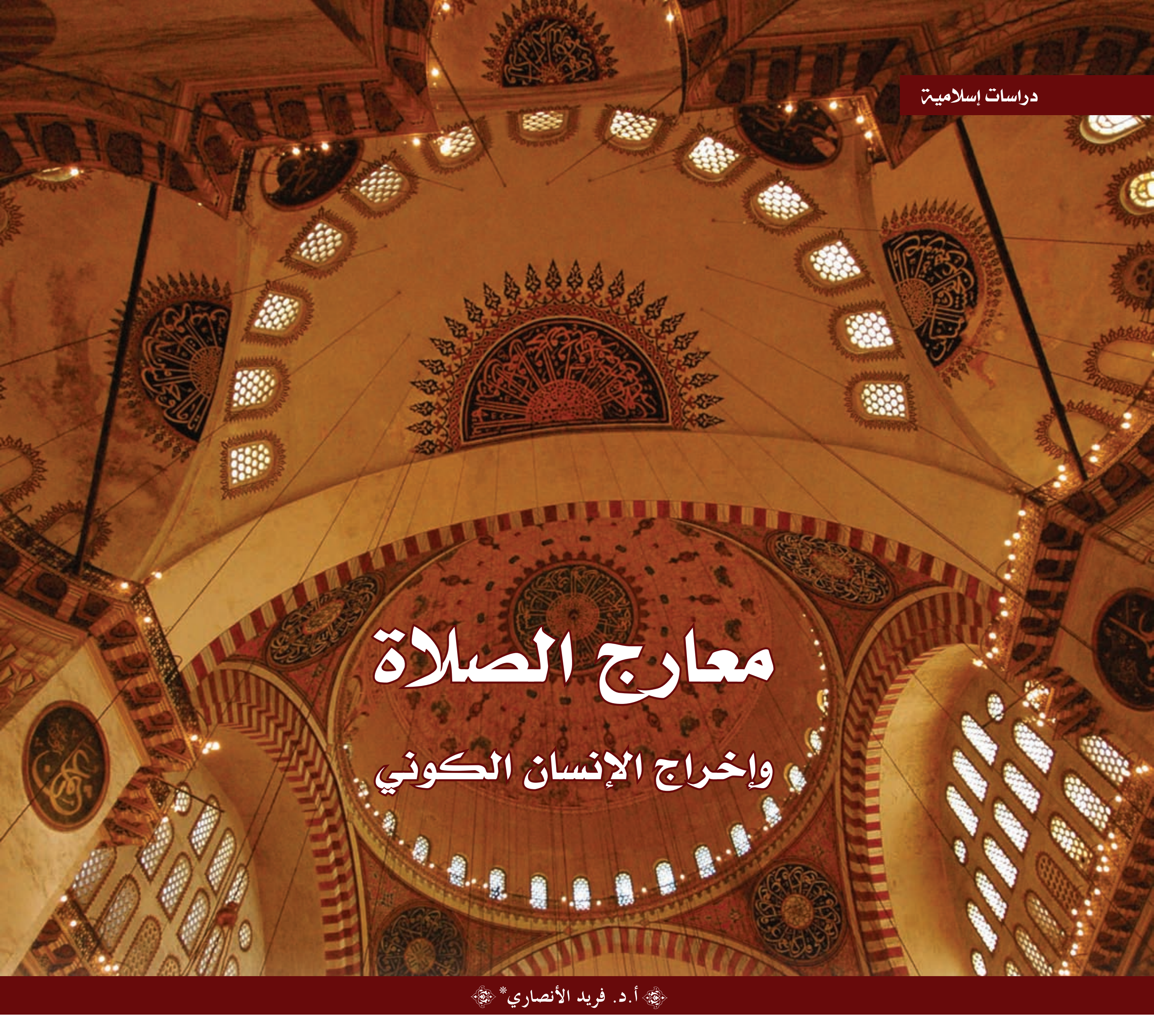
في البداية تكلم الغيب الكامن فينا معترفا بالربوبية. وفي النهاية تكلم الغيب الكامن فينا معترفا بقدرة القادر، وإبداع الخالق. وبين البداية والنهاية تكلمت فينا قوى كثيرة، لكنها قوى الشهادة.

أما قوة الغيب الكامن فينا: قوة الفطرة والوعي والكهرباء المبثوثة في كياننا.. في قلوبنا وأرواحنا وأسماعنا وأبصارنا.. قوة النواة اللاشعورية والخليّة الحية الدائمة.. قوة المضغة التي لو صلحت صلح الجسد كله، والروح التي كانت في البدء، وتبقى معنا، تغدو وتروح حسب فاعليتنا وحضورنا، فإما غبنا فتوفاها الله حين غيابنا في نومنا أو موتنا؛ وإما حضرنا فأرسلها الله إلى أجَلنا المسمى.. أما قوة الغيب هذه فهي التي يجب أن نستثيرها لتتكلم فينا، بل لتعمل فينا، بل لتقودنا.

استفتِ قلبك، إنه قوتك الحقيقة، وهو المصلح والقائد... استشره دائما، واخضع له ولا تخضع لقوى الشهود حين تختلّ في يدها الموازين.

أما موازين الداخل، موازين الغيب الكامن فيك، فهي لا تختل أبدا، شريطة أن تحفظها بسور البداية: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف:١٧٢)، وبسور النهاية: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(فصلت:٢١).■

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.



معارج الصلاة

وإخراج الإنسان الكوني

أ.د. فريد الأنصاري*

الدين هــو العبادة، والعبادة هــي الصلاة. نعم، لعبادة الله أشــكال شــتى من الفرائض والنوافل والأعمال والحركات. ســواء مما شــرع للتعبد أصالة كالعبادات المحضة؛ أو مما شرع للتعبد تبعا، ككل أعمال العــادات والمعاملات. ولكن ذلك كله مجموع في معنى الصلاة. فلا شــيء من ذلك يكون عبادة حــتى يرتقي إلى معنى الصلاة، ذوقا ووجدانا. ولذلك كانــت الصلاة هي أعظم ما في الدين. كما في قوله ﷺ: "رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة" (رواه ابن ماجة والترمذي)، وكان "أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح له سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله" (رواه الطــبراني). فالصلاة إذن هــي الدين من حيث معناه الذي هو الخضوع لله الواحد القهار رغبا ورهبا.

وللصلاة في الإسلام جمال الدخول في موكب الكون العابد، سيرا إلى الله تسبيحا وتمجيدا. فذلك إذن مقام الأنس البهي، حيث يستشــعر العبد صحبة الكائنات كلها، تنافسه في حبه الجميل، ووجدانه العليل، وتســابقه في مسراه عبر قافلة العابدين الراجين الخائفين: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾(الرعد:١٣). فيا أيها الإنســان! ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّــمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّـجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَــاءُ﴾(الحج:١٨){س} أيّ تناسق هذا بين الأرض والسماء؟! وأي تناغم هذا بين شتى المدارات؟! وأي شذوذ هذا الذي يمارســه الإنسان في تمزيق وحدة الوجهة

نحو الخالق العظيم؟! فَلِمَ لا يسجد داود عليه السلام لربه في هذا الموكب المتسق التغريد والتجويد... ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾(الأنبياء:٧٩)، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ۞ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾(ص:١٨-١٩) ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(الإسراء:٤٤)، و﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾(النور:٤١).

الإنسان عبد كوني

إن هذا القرآن يخاطب الإنسان باعتباره كائنا "كونيا" بامتياز. إنه يعيش في الأرض. نعم، ولكنه يمتد بفكره الطموح إلى الآفاق البعيدة بملايين السنوات الضوئية، بل بملاييرها وزيادة. فهو "كوني" بما هو عبد الله رب العالمين، يحمل رسالة الله في رحاب هذا الكون كله، "الكون" بمفهومه القرآني الفسيح، الممتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، لا بمفهومه الفزيائي الضيق -على سعته- الذي يقف علماء العصر عند حدوده حائرين. فما النجوم والكواكب كلها بفضاءاتها وسُدُمها إلا سقف هذه السماء الدنيا. والكون القرآني يمتد فوقها سبع سماوات. و"السماء" في القرآن مفهوم غيبي لا علاقة له بالمادة المتجلية في عالم الشهادة. قال جل وعلا: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾(الصافات:٦)، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾(نوح:١٥-١٦).

أيْ عبدَ الله! انظرْ، هذه الأجرام السماوية تسبح الله وتصلي، سابحة في مدارها السائر أبدا إلى الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(الأنبياء:٢١).

أما أنت أيها العبد المؤمن! ففلكك السيار إنما هو مواقيتك الخمسة، تجري بك عبر أبراج المحبة ومنازل الشوق، فالبدارَ البدارَ يا سالك بأوقات المطالع! فقد جمعت كل الخير في تجليات الجمال، وما بقي بعدها إلا التيه في فيافي الضلال. عجبا! وأي كوكب هذا الذي يرحل في مداره مجذوبا إلى جاذبيته، ثم يتخلف عن مطالعه؟ كيف وها ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾(النساء:١٠٣).

الوقت هو الصلاة

كان الوقت فكانت الصلاة.. وإنما الوقت هو الصلاة.. فتأمل! الإنسان، هذا الجرم الكوني الصغير، كان المفروض فيه أن يدور بفلكه كسائر الأجرام السيارة في الكون طوعا لا كرها. ولكن لو كان يدري... إن هذه الآية العظيمة تضعه في مداره الطبيعي ليسلك سبيله إلى ربه ذلولا: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتاً﴾. وما الإنسان إن لم يكن هو هذا العمر المحدود بداية ونهاية، وبينهما يوجد شيء اسمه الإنسان، فتأمل!

وإنما الصلوات الخمس مواقيت لرموز التحولات الزمنية؛ فالفجر بدء وبه تبدأ الحياة، وما بدأ شيء إلا لينتهي. والفجر اسم وقت قبل أن يكون اسم صلاة، لأننا إنما نعبد الله بالوقت. وإنما الوقت هو الصلاة لله رب العالمين الذي أنعم عليك بالبدء، أنعم بالحياة، فاملأ رئتيك -يا سالك- بالنفَس الأول من صلاة الميلاد، ميلاد الحياة. ويا لخيبة من نام عن شهود النبع الأول من عين الصفاء، فكرع من بعد الوقت ماء مسنونا! وهل يكرع الكارعون في آخر الماء إلا غسالة الأولين والسابقين؟!

ويدور الكوكب العابد في مداره هونا، حتى إذا توسطت الشمس كبد السماء اشرأبت الأعناق لسماع المؤذن يعلن بدء الزوال وانقلاب الظل إلى الجهة الأخرى. زوال الشمس يا صاحبي بداية العد العكسي في عمر الإنسان، فمذ دشن فجره وهو يعد عدا تصاعديا. حتى إذا زالت الشمس وامتد الظل قليلا إلى الجهة الأخرى بدأ الانحدار. ففرارا إلى الله إذن؛ تشهد منتصف عمرك صلاة ظهر، فما بقي أكثر مما سلخت من أنفاس، ذلك هو التحول الفلكي الثاني: محطة كبرى من محطات الزمن الأرضي، تشهدها عابدا لا شاردا عن باب الله. حتى إذا صار الظل مثل طول كل قامة امتد عنها بدأ العصر ينذر بقرب الأفول! وما العصر إلا إنذار لك يا سالك أنْ لم يبق لك من العمر إلا لحظات وتنتهي الأضواء إلى ظلمة القبر.

ماذا أعددت لذلك البيت الموحش من مؤنسات؟ والعصر محطة فلكية أخرى ينعصر فيها الزمن انعصارا ليشهد تحول الصهد المنخنق إلى أصيل. ذلك آخر الزاد إذن من سبحات النهار، ليس بعدها إلا مسك الختام. ومن هنا النذير الشديد لمن غفل عن هذه الساعة الفاصلة. فلحظة أو لحيظة -لا تدري كيف- ويكون الغروب. هنالك تشهد كيف يموت الضوء، بل كيف تموت الحياة، وتصلي. وإنما المغرب غروب، تلك هي الحقيقة الأولى التي نطق بها الفجر مذ تفجر عن أنواره لو تعلمون. فيا عبد، ما أخرك عن شهود حقيقتك؟! هذا الكون كله يغرب، ولا عودة للحظة ماتت، لا عودة لها أبدا... محطة فلكية من تحولات الأزمنة،

تشـــهدها صلاة خاتمة للأضواء، وفاتحة للعتمات. ثم ندلج إلى الله بالعشاء صلاة ســارية. وإنما العِشاء من العَشاء، وهو في الأصل ضعف البصر حيث العتمة تمنع الإبصار إلا قليلا.

تلـك إذن هي الصلوات الخمس، أوقات للتحولات الفلكية الكبرى، نعدهــا بالصلاة عدا. ألم أقل لكم كان الوقت فكانت الصلاة، وإنما الوقت هو الصلاة؟! ولقد قلت لك يا صاح، فتأمل!

وإنما الأوقات الخمسة رموز لليوم كله؛ فجر، فظهر، فعصر، فمغرب، فعشـــاء. فماذا بقي بعد ذلك من الوقت إلا امتدادات لهذه أو تلك؟ فالوقت كله إذن هو الصلاة. أنت تصلي الأوقات الخمسة؛ إذن أنت تصلي العمرَ كله، قلت: كله. وإنما فرض الله الصلاة عمرا، لا حركة ولا ســكنة إلا صلاة. ألم يفرضها ﷻ أول ما فرضها خمسين صلاة، ثم خففها إلى خمس، كل وقت منها ينوب عن عشرة أوقات، والحسنة في ديننا بعشرة أمثالها؟

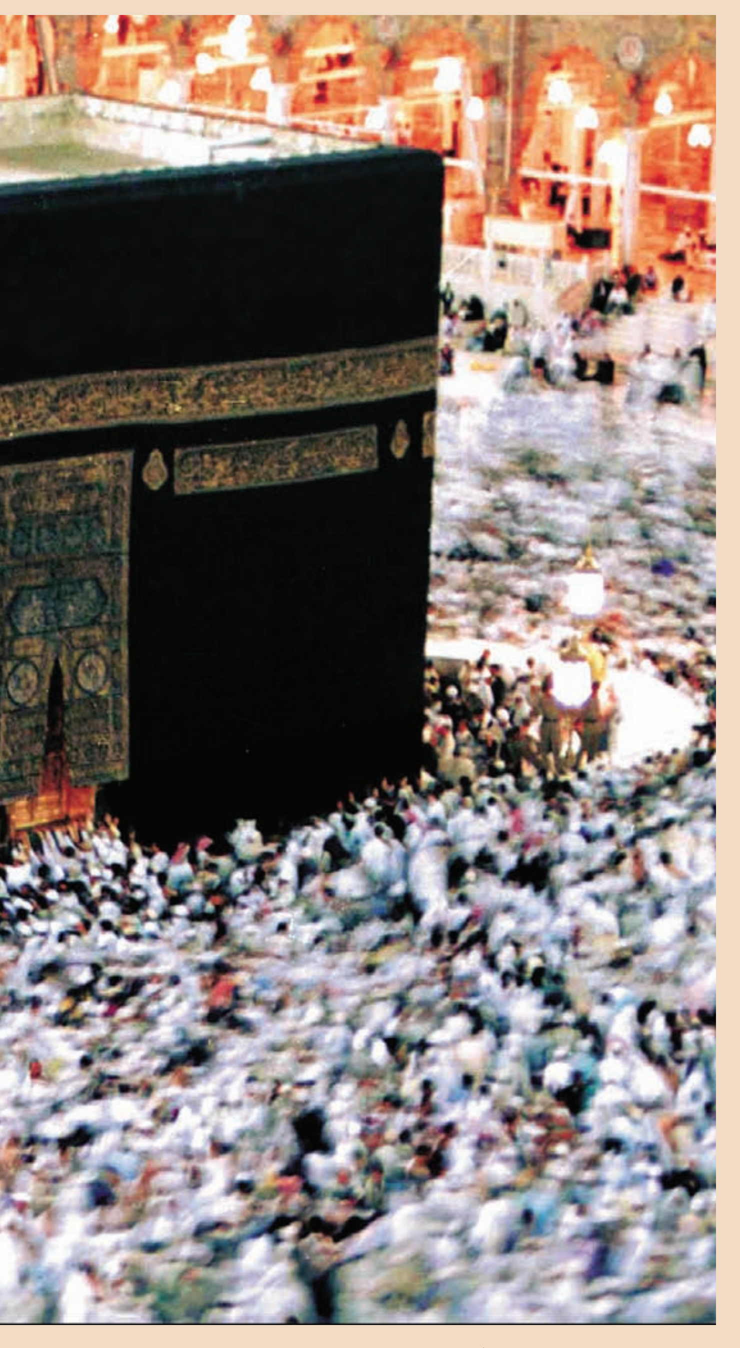
أن تعبد الله بالوقت يعني أنك تعبده بمهجتك، وما المهجة إلا العمــر، وما العمر إلا زمن، وما الزمن إلا أعوام، وما الأعوام إلا أشهر، وما الشهر إلا أيام، وما الأيام إلا ساعات، وما الساعات إلا دقائق، وما الدقائق إلا ثوان. فما عمرك يا ابن آدم،

دَقّاتُ قلب المرء قائلةٌ له إن الحياة دقائقٌ وثوانِ

هكذا إذن؛ أن تعبد الله بالخمس يعني أنك تعبده بالعمر كله، تنثــر مهجتك بين يديه تعالى وقتا وقتا، أو قل نبضا نبضا، ما دام هذا الفلك يعبر العمر إلى ربه هونا.

أما أن يفوتك وقت فيعني أنك قد خرجت عن مدارك. فانظر أي حافة من الفراغ العاصف تنتظرك، وأي قوة بعد ذلك ستعود بك إلى هدوء المدار...

أن يفوتك وقت يعــني أنك فقدت جزءا من العمر. ومن ذا قدير على اســتعادة الزمن الراكض إلى وراء؟ ولقد قال الفقهاء لفعــل الصلاة إذا كان في الوقــت "أداء"؛ وإذا كان بعد الوقت "قضاء"؛ لأن الذي يقضي لا يؤدي أبدا. هل يمكنك اســتعادة الوقت؟ هل يمكنك استعادة التاريخ؟ هل يمكنك أن تعيش اللحظة مرتين؟ ولقد صدقوا في الفلســفة القديمة إذ قالوا: "لا يمكنك أن تســبح في النهر مرتين". لو لم تكن الصلاة "وقتا"، لأمكنك أن تفعل ذلك على سبيل التشبيه والتقريب، أما وإنها وقت فإنك لن تفعل، وإنما الذي تفعله أنك "تعوض" تعويضا، وما كان العِوَضُ -بعذر أو بغير عذر- ليكون كالأصل أبدا، لسبب بسيط هو أن المســألة وقت، فانظر لو أنك لم تأكل طعام عشائك حتى كان الصباح، ثم طلبته؛ أتكون حينئذ تتعشــى أم تفطر؟ طبعا إنك لن تتعشــى عشاءك ذاك بعدُ أبدا، ولو كان الطعام هو عين الطعام. لســبب بسيط هو أن المسألة وقت. ولا صلاة تفوت فتؤدى بعد ذلــك أبدا، وإنما فرصتك الوحيدة أن تقضي إن جاز لك قضاء. وشــتان شتان بين أداء وقضاء! ألم أقل لكم كان الوقت فكانت الصلاة، وإنما الوقت هو الصلاة؟!



الوضوء حلية المؤمن

وأول البدء في الصلاة تجمل بالوضوء، فهؤلاء المؤمنون يتسابقون إلى تزيين وجوههم، وأيديهم إلى المرافق، ورؤوســهم، فأرجلهم

وتدور الفصول من حر إلى قر، فيبقى الوضوء سرا من أسرار الجمال الذي ينسخ نوره آثار معركة الحياة، من سهام إبليس ورشاقته.

كانت كلمات النبوة بلسما، يوضع على الجروح فتشفى بإذن الله. فها أنا ذا يا حبيبي أرتحل إليك مخترقا حدود الزمان والمكان؛ لعلي أصيب رذاذا مما أصاب الصحابة الكرام، فجنبات المعمور ما زالت تردد أصداء النور النبوي: "ألا أدلكم على ما يمحو به الله الخطايا، ويرفع به الدرجات؟" قالوا: بلى يا رسول الله. قال: "إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فذلكم الرباط، فذلكم الرباط" (رواه مسلم).

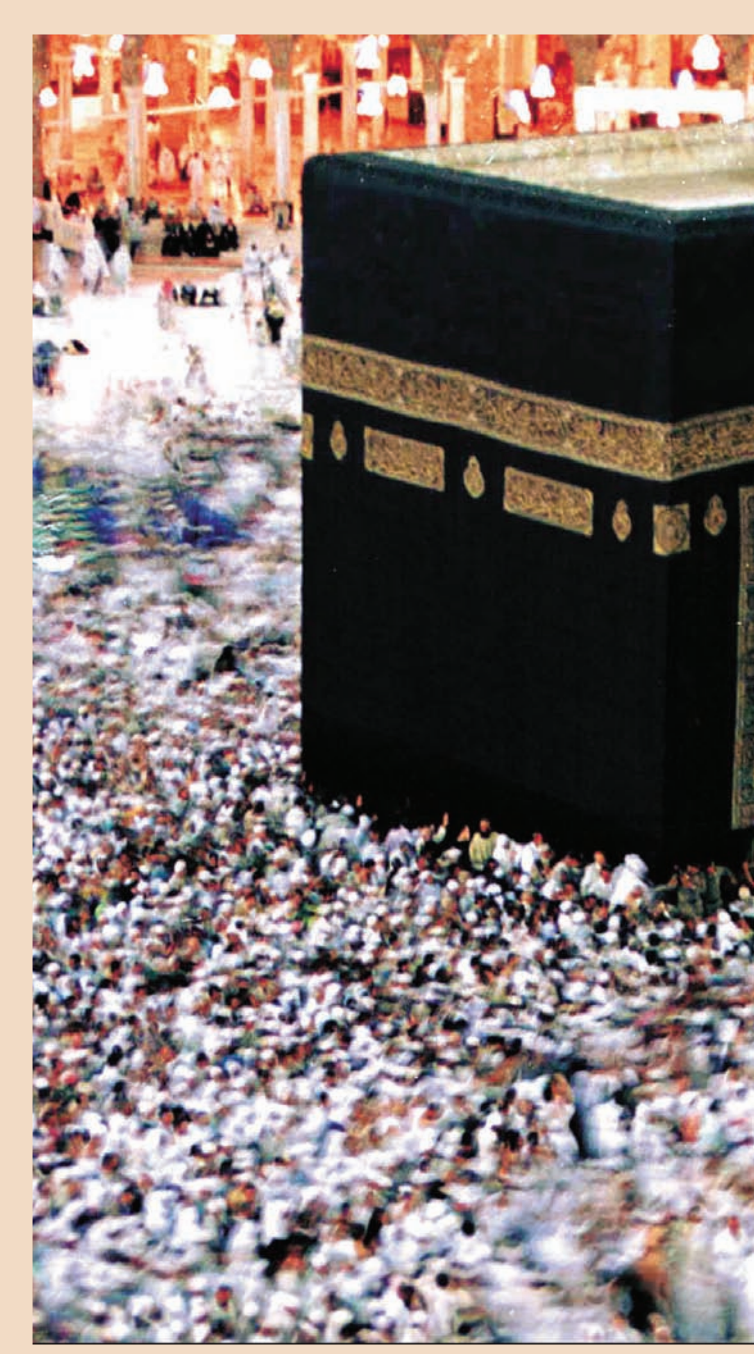
والمكاره شتى في هذا الزمن الرهيب يا نبي الله... فهذا قر الشتاء أصبح اليوم خنقا، بتوقيت تعده عليّ ساعات الدرهم والوظيفة، وأشياء أخرى ما سلمت منها عين ولا خد ولا يد ولا رجل. فبأي حمأ آسن امتلأت برك هذا العصر الغريب!

ألا هونا عليك يا صاح! فما في الدنيا وسخ، أو دَرَنٌ لا يغسله أريج الطهور. لكنما التحلي مقام ينبئ عن تمام التخلي. فهلم إذن، وَأْتِ من أي الجهات أتيت، وبأي الأدواء ارتديت، فكل حفنة من الماء كفيلة بمسح بعض غبار الطريق.

أوَليس "إذا توضأ العبد المسلم، أو المؤمن، فغسل وجهه؛ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه، مع آخر قطر الماء. فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع آخر قطر الماء. فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب" (رواه مسلم). بلى يا رسول الله!..

مع الغر المحجلين

فما أبطأ بك إذن يا صاحبي؟ هذي جموع المؤمنين سارعت إلى لقاء رسول الله ﷺ بيوم القيامة، يرِدون حوضه الكريم، بأوسمتهم النورانية: كانت الخيل وهي مقبلة فأل خير، ترفع غُرَرَها البيضاء نحو سماء الانتصار، ولقوائمها المحجّلة -وهي تباري الأسنة راكضة- جمالٌ، لا يضاهيه إلا جمالها وهي تقف هادئة بين يدي رسول الله ﷺ بوجه أغَرَّ وأطراف محجَّلة. وإنما ذلك في المؤمن نور يكتسبه بسبب ما كان يحلي به وجهه وأطرافه من طهارة، في مسرى العبادة، السالك إلى الله.



إلى الكعبين. و"تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء" (رواه مسلم)، ذلك شرط المرور إلى عتبة الصلاة، إذ "لا تُقبل صلاة بغير طُهور" (رواه مسلم).

وتتقاطر أفواج المصلين على الماء؛ ليرِدوا من بعد عطش شديد، مما أصابهم من دخان المال والأعمال. وتمتد الأيدي خاضعة ذاكرة يدفعها الحنين إلى ارتداء أوسمة الإيمان طهورا ينقلهم مباشرة إلى مناجاة الرحمن. وإن "الطهور شطر الإيمان" (رواه مسلم)، كلمة سرٍّ مُودَعة في كتاب الاستئذان من حديثك يا رسول الله.

فلتسبغوا الوضوء على المكاره إذن سادتي الأتقياء، فإنكم "أنتم الغُرُّ المحجَّلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء، فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله" (متفق عليه). تلك سيم الجمال في وجوهكم، وأطرافكم يوم تَرِدون على المصطفى ﷺ، وهي سِيَم "ليست لأحد من الأمم" (متفق عليه)، بها تُعرفون في كثرة الخلائق يوم القيامة، كالدر المتناثر في دجلة الفضاء.

هذه ومضة الإبراق النبوي تبشر برشح الأنوار على أطراف المتوضئين الساجدين، رشحا لا يذبل وميضه أبدا. فإذا النبي الكريم يميز المحبين وسط الزحام واحدا واحدا: "ما من أمتي من أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة"، قالوا: وكيف تعرفهم يا رسول الله في كثرة الخلائق؟ قال: "أرأيت لو دخلت صُبْرة [محجرا] فيها خيل دُهْم، بُهْم، وفيها فرس أغر محجل، أما كنت تعرفه منها؟" قالوا: بلى. قال: "فإن أمتي يومئذ غُرٌّ من السجود، مُحَجَّلُون من الوضوء" (رواه أحمد).

هذه قصة الماء الطهور في جداول السلوك إلى الله. وفي الماء سقاء لدالية الشعور بالرضى الرباني، والقبول للمثول أمام جلال الله. ألا ما أعمق الفرق في الغصن الواحد بين زمانين: الأول سنوات عجاف، لا نصرة ولا نعيم، ولا صدى لصهيل إلا قعقعة الحطب في ليالي الريح.. والثاني عام فيه يغاث الناس، فتتسلق الدوالي أغصان البروق، ويحتفل المطر، فإذا الأشجار مورقة ريانة، وإذا صفوف المصلين تتراص عند فاتحة الزمان الجديد، والوجوه مازالت ترشح بماء الطهور... وتكون الصلاة... "والصلاة نور" (رواه مسلم).

كانت كلمات الإقامة إشعارا ثانيا -بعد الأذان- بضرورة نفض كل ما بقي من علائق التراب قبل الإذن للأجنحة أن تقلع في طريقها إلى مقام المحبة: "قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة!" وترتفع الأيدي المحجلة تجاه القبلة في تكبيرة الإحرام، لتفريغ البال من جميع الأحوال، إلا حال الفقر المرفوق بالشوق إلى الغني الحميد، ثم تتأدب بالتزام الصدر في وقفة العبد بين يدي الملك العظيم، تأسيا بجمال الامتثال في قيام النبي ﷺ، وقد كان في وقوفه بباب الله "يضع اليمنى على ظهر كفه اليسرى والرسغ والساعد" (رواه أبو داود والنسائي)، و"كان يضعهما على الصدر" (رواه أبو داود)، ثم تشرق التجليات...

القِبلة جامعة الأفئدة

والقِبلة جامعة لشتات القلب والبصر، وإنقاذ للعبد السالك من مقام الحيرة إلى حدائق الطمأنينة، قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾(البقرة:١٤٤).

وكيف لا يحتار هذا الفكر الجزئي البسيط، القابع في مدار كوكب ضئيل، يدب في بحر لُجّيٍّ من الكواكب والمجرات، وتيه من العوالم والمخلوقات، مما يستعصي حتى على مجرد التصور الشامل والاستحضار الكلي... فكيف إذن لا يحتار هذا الفكر المحدود المنحصر، وهو بصدد الاتصال، وعلى أعتاب المناجاة مع رب هذه العوالم المحيط بجميع هذه المخلوقات...

فلتكن القبلة إذن قنديلا آخر في طريق التعبد يجمع المصلين في العالم أجمع حول قلب واحد، ينبض بتوحيد الله ذي الجلال، ويبعث من مكة المكرمة أنوارا تتلقاها أفئدة العابدين في كل مكان "أن هلموا، هذا بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس"، فتحج الأرواح من محاريبها خمس مرات في اليوم... "الله أكبر!"

كأن سيف النور قد قطع الزمان نصفين، الأول إلى خلف، فما زال راكضا في تغيره يذوب فناءً بذوبان الأشكال والألوان المتهاوية تترى، في عالم الأوراق السافرة بين ربيع وخريف، ولا برعوم يورق مرتين: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(الرحمن:٢٦-٢٧). والثاني إلى أمام، ما يزال متوجها إلى مقام البقاء، فالنور المتجلي على الغرر البهية مستمد من معين لا ينضب. والعبادة لحظة تستمد خلودها من مناجاة الحي الذي لا يموت، فتفنى الذوات عند آجالها، وتبقى لحظات الصلاة حرما آمنا لا يناله أثر الزمان، ليرسم نعيما سرمديا بقناديل تستمد زيتها الوضاء من مشكاة الله، ويُتَخَطَّفُ السعي العابث من حوله، فإذا هو محض سراب.

المناجاة بين الخالق والمخلوق

كان الوارد نورا يهمي من أعلى، فينفتح القلب بكلمات من نور آخر، فإذا اللحظة مناجاة بين الخالق والمخلوقات.

أنت الآن أمام جلال الله، تقدم إيمانك إخباتا بين يديه تعالى، والقلب مفتوح الأبواب، فلا شيء به يبقى مستورا. وقد تنتابك

أدخنة الطين ريـــاء ونفاقا، ما بين الذرة وأقـــل، فتفر إلى ربك مذعورا. وتناجيه حزينا أن أبرئني يا سيد هذي الأوراد مني... "أوَ لست تصلي" و"إنَّ أحدكم إذا صلى يناجي ربه" (رواه البخاري).

عجبا! فأي قوة ما زالت تصمد في ساقيك، فتمتثل وقوفا أمام عظمة الواحد القهار، والجبل قد اندكّ وراءك من خشية الله؟ أن تصلي يعني أنك تقابل ربك غصنا منفوض الأوراق... فأنت كما أنت، لا تخفى منك خفقة قلب واحدة؛ صَفَتْ أم خالط دمعتها ريحُ الحمأ المسنون... و"إنَّ أحدكم إذا كان في الصلاة، فإن الله قِبل وجهه" (رواه البخاري)، والله قَبل ذلك وبعده ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(غافر:١٩). فكيف يمكن لهذا البصر أن يمتد قيد أنملة نحو السماء، والرب بجلاله قِبَلَه؟ إذن تندكّ ضلوعه، فيخر القلب صعقا، ولا يبصر شـــيئا بعدها أبدا. كان التحذير النبوي حريصـــا على أمر المحبين بالتزام آداب المحبة حتى لا تســـتحيل حديقة النور إلى ظلام دامس. قـــال ﷺ: "لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى الســـماء في الصلاة، أو لا ترجع إليهم" (متفق عليه).

وأما التفات عن يمين أو شمال فهو "اختلاس يختلسه الشيطان مـــن صلاة العبد" (رواه البخـــاري). وأنّى لعبد في مقام الخضوع أن ينصرف عن مشاهدة الجمال بقلب ملؤه التقوى والورع؟! وأنى لعبـــد في مقام الخضوع أن ينصرف عن تـــذوق كؤوس الترتيل الطافحة بشهود الفلاح؟! كيف و﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾(المؤمنون:١-٢).

يا لآيات البهاء تنطلق كلماتها من ألسنة رطبة بذكر الله، مصطفة مثلما تَصُفُّ الملائكة عند ربها... وكيف تَصف الملائكة عند ربها؟ قال: "يتمون الصفوف الأُوَلَ، ويتراصون في الصف" (رواه مسلم).

ألا صلى الله عليك يا رســـول الله! أصَفٌّ في الأرض، وصف في الســـماء؟ والصلاة جامعة؟ هكـــذا إذن تخف الأجنحة المثقلة بأحزانها، وتنطلق الأسراب محلقة لمزاحمة الملائكة في مدارات النور عند أعتاب ملك الكون الظاهر والباطن.

ألا ما أشـــقى ذلك الجمل الشارد في صحراء الظلمات... لا يفتأ يلهث راكضا خلف ســـراب مال متسخ، حتى يتسخ وبره وتنتن رائحته، فيرين علـــى قلبه ما يحجب رؤيته لجدول الصلاة الرقراق، وراء رمال العصيان، ثم يموت يلهث عطشـــا دون ظل المورد العذب. وما بين استحالة الموت ميلادا إلا أن يركع لمالك خزائن القطر، فإذا القفر حواليه حدائق ذات بهجة، ترشح غصونها بأنداء الطهور، نورا يصفيه من جميع الأدران.

كان البهـــاء يحيط الحبيب المصطفى، وهو في هالة صافية من أصحابه إذ قال: "أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات؛ هل يبقى من دَرَنِه شـــيء؟" قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: "فكذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا" (متفق عليه).

ويوقد الحبيب قنديلا آخر فيقول: "ما أدري أحدثكم بشيء أم أسكت؟" فقلنا: يا رسول الله إن كان خيرا فحدثنا، وإن كان غير ذلك؛ فالله ورســـوله أعلم. قال: "ما من مسلم يتطهر، فيتم الطهـــور الذي كتب الله عليه، فيصلي هذه الصلوات الخمس إلا كانت كفارات لمـــا بينها" (متفق عليـــه)، وفي ومضة قنديل آخر: "وذلك الدهر كله" (رواه مسلم).

هـــذا المســـرى الربيعـــي إلى الله، رَغَبا في ينابيـــع الرحمة والمغفرة، تتعانق الصلوات فيه أقواســـا من الدوالي المورقة، حيث تتشـــكل العناقيد قناديل خضراء، ترســـم خطوات النور الهادي إلى الرحمـــن، فتختزل العـــدد والزمان، إذ بكل خطوة عشـــر خطوات في طريق الله، فقد فرض الله على نبيه ﷺ -في الســـماء الســـابعة، وبغير واســـطة الملاك جبريل عليه السلام- خمسين صلاة في كل يوم وليلة، ثم خففها ســـبحانه، اختـــزالا في خمس، ثم قال في الحديث القدســـي: "يا محمد، إنهن خمـــس صلوات كل يوم وليلة، بكل صلاة عشـــر، فذلك خمســـون صلاة" (رواه مســـلم).

أي فريضـــة هذه التي هي فضل كلهـــا، ورحمة كلها، ونور كلها، وجمال كلها؟! وإن عبادة فرضت في السماء من غير واسطة الملاك؛ لحرية بالارتقاء صعدا بعشاقها إلى مقامات السماء.

فاصطـــبري يا أبدان على إدامة التطهر بنهر النور، فإن غصنا ينبـــت في جوار الغدير لا يجف أبدا، إن لم ينل من فيضه نال من نداه. والأمل يسري نضرة وجمالا في قده المياد ركوعا وسجودا.■

(*) جامعة مولاي إسمعيل، ورئيس المجلس العلمي بـــ"مكناس" / المغرب.



مفهوم العلم وغايته

في القرآن الكريم والسنة النبوية

د. حبيبة أبو زيد*

كل من تدبر القرآن الكريم والسنة النبوية، واستعرض سيرة رسول الله ﷺ، وجد أن للعلم والمعرفة شأنا عظيما. فقد عَرف سيدنا محمد ﷺ منذ أول ما أوحي إليه أنه سيكون له وللعلم شأن عظيم، وللمعرفة في دعوته مقام رفيع. ومنذ أن أيقن ﷺ أنه كلف تبليغ رسالة الله الخاتمة، لبى أمر خالق الأرض والسماوات، ومدبرِ أمر الإنسان ومربي الكائنات، فدعا العالمين إلى الإسلام وأقام لهم العلامات على صدقه، و لم يمض من الزمن غير يسير حتى أنشأ دولة عظيمة كان العلم أساسها والمعرفة سبيلها.

أعظم تحول في تاريخ البشر

إن التغيير والإصلاح الذي أحدثه رسول الله ﷺ ليس له نظير في التاريخ. لقد استطاع في ظرف وجيز أن يقتلع جذور أفكار وعادات كانت راسخة بقوة وأن يبني حضارة عظيمة وأن يضع مدنية محل بداوة وجاهلية. وسبب ذلك أنه بوحي من رب

العباد الذي يحيط علمه بكل شـــيء سلك منهجا دقيقا في التربية والتعليم، فاســـتطاع تربية جيل من أصحابـــه حملوا أمانة صيانة حضارة الإســـلام من بعده. وإن هذا التغيير لأحوال العالم الذي حققه رســـول الله ﷺ، كان محل دراســـة وبحث عميق عند أهل الفكـــر والثقافة والمتخصصين في بنـــاء الحضارات وتاريخ الأمم عبر العصور من جميع الجنســـيات ومن جميع الأديان والمذاهب. والجميع يشهد أنه أعظم تحول يحصل في تاريخ البشر. وما ذلك إلا لأن العلم والمعرفة كان لهما المقام الأعلى والمنـــزلة الأسمى.

إن من أهم الدعائم التي أقام عليها رسول الله ﷺ الحضارة أن العلم ســـلعة غالية وأن المعرفة قيمة سامية. ولهذا وضع ﷺ قواعد لتحصيل العلم، وأسس مناهج للبحث عن المعرفة والانتفاع بها، وبيّن مزالـــق أهل العلم وطلاب المعرفة للحـــذر منها واتقائها، حتى تســـير الأمة كلها على هدي العلم النافع وفي ظلال المعرفة الصحيحـــة. والذي يهمنا هنا أن نبـــين أن هناك مفهوما عجيبا للعلم رســـخه الرسول ﷺ من خلال القرآن الكريم وسنته القولية والعملية، عليه قامت الحضارة الإسلامية في عصورها الذهبية.

المعتبر من العلوم

لقد نص علماء الإسلام منذ القديم على أن إطلاق العلم في القرآن الكريم والسنة النبوية ينصرف أولا إلى علم الوحي والشريعة، ومن أدلتهم على ذلك قوله ﷺ: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين" (رواه البخـــاري)، وغيره من الأحاديـــث الكثيرة في الحث على تعلم القرآن الكريم وتعليمه ومدارســـته، وحفظ السنة النبوية وتبليغها ومدارستها. قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث: "ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين (أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع) فقد حرم الخير. وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على ســـائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم"(١).

فالعلم الشرعي أفضل العلوم وهو جدير بالطلب والحرص على تحصيله؛ لأنه به يعرف الله ﷻ ويعبد، وبهذا العلم يعرف ما أحل الله وما حرم وما يرضيه وما يسخطه. وبهذا العلم يعرف المصير إليه والنهاية من هذه الحياة، وأن قسما من المكلفين ينتهون إلى الجنة والسعادة، وقسما آخر ينتهون إلى دار الهوان والشقاء. ولما كانت هذه فائدة علم الشـــريعة، كان هذا العلم أشرف العلوم وأسماها لأنه الطريق إلى الســـعادة الحقة في الدار الآخرة، وهو السبيل إلى الفوز بنعيم الجنة الذي هو الغاية المرجوة والهدف العظيم المنشود.

وإن سعادة الآخرة أساسها ومنطلقها معرفة الله تعالى والإيمان بـــه وطاعته، وهذا إنما يؤخذ من علم الشـــريعة، ولهذا ينصرف "العلم" عند إطلاقه إليه. يقول الحافظ ابن كثير في تفســـير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَـــى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨) "أي إنما يخشـــاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحســـنى، كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظـــم وأكثر"(٢). فبين أن العـــبرة في العلم هو معرفة الله التي بها تحصل الخشـــية. فمعيار العلم الوصول إلى معرفة الله، والمعتبر هو الاهتداء إلى طاعـــة الله والإيمان به. فكل علم لا يوصل إلى هذا فليس علما على الحقيقة وإن أدخله أصحابه في العلم.

علوم الكون

وإن إطلاق العلم على علم الشـــريعة لا ينفـــي صفة العلم عن معارف الدنيا وعلوم الحياة التي يهتدي إليها الإنسان عبر الزمان والمكان، والتي تسمى اليوم "علوم الكون" أو "العلوم التجريبية"؛ لأنها تؤخذ من التجربة المطردة والخبرة المتكررة. وســـبب ذلك أن علـــوم الكون من علم الله تعـــالى الذي يفتح منه على عباده، فيعرفون خصائص الكون وصفات الإنسان وأحوال عالم الأحياء وقانونَ ذلك كله. فعلوم الكون التي يهتدي إليها البشـــر إنما هي في الحقيقة وصف للموجود واكتشـــاف لحقيقة الكون المخلوق وصفاته ونظام عمله وقانون ســـيره. إنها تستمد من علم الله لأنها تعرّف بخلق الله وبديع صنعه.

وإن علوم الكون ليست معتبرة إلا إذا كانت عونا على معرفة الله، وطريقا إلى مرضاته وحسن عبادته، والسعي في الأرض بالخير والإحسان وليس بالشر والإفساد. ولا يمكن لهذه العلوم أن تكون كذلك إلا إذا ســـارت تحت ظلال الشريعة، فتكون بذلك علوم الشـــريعة هي الحَكم لعلوم الكون والمرجع في كل المعارف، فهي بالنسبة للعلوم بمنـــزلة الروح للجســـد، ولهذا ينصرف "العلم" إليها عند الإطلاق في القرآن الكريم والســـنة النبوية، وليس معنى ذلك نفي صفة "العلم" عن علوم الكون والحياة.

التأليف بين العلوم الدينية والتجريبية

وإذا كان الأصل أن إطلاق العلم في القرآن والسنة النبوية ينصرف

إلى علم الشـــريعة، فإنما ذلك لأن علم الشـــريعة هو روح باقي العلوم التي تهتم بالكون والحياة والإنســـان، فلا عبرة بعلم إلا إذا سار في ظلال الشريعة واهتدى بأنوار الوحي. ولهذا فلا مانع من إطلاق صفة العلم على كل معارف البشر التي تبحث في الكون والإنسان إذا ســـارت في مقاصدها وضوابطها على هدي علوم الشريعة القائمة على القرآن الكريم والسنة النبوية. ومما يؤيد هذا ويدل عليه أن في القرآن الكريم إثباتَ صفة العلم لعلوم الدنيا، مع الإشارة إلى ضرورة اهتدائها بعلوم الشريعة.

يقـــول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(الروم:٧) فأثبت لهم العلم، وإنما ذمهم لوقوفهم عند علم الدنيـــا في غفلة عن علم الآخرة، أي إنهم لم يهتدوا في علمهم بالدنيا بعلوم الشريعة، فلو اهتدوا في ذلك بعلوم الشريعة لاستحقوا المدح لا الذم. فعلومهم معتبرة إذا سارت تحت ظلال الشريعة لأنها بذلك تُعرّفهم بالله وتقربهم إليه وتحصل بها المنفعة في الدنيا ويتحقق بها الصلاح.

وهذا ما ذكره أهل التفســـير في هذه الآية، يقول ابن كثير: أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكســـابها وشؤونها وما فيهـــا، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاســـبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحســـن البصري: والله لبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلي. وقـــال ابن عباس: يعني: الكفارُ يعرفـــون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال[٣]. فلولا جهلهم بأمر الدين وعدم اعتدادهم بما يرشـــد إليه من علوم الشريعة، لنفعهم علم الدنيا واستحقوا عليه الأجر، لأنه بعلوم الشريعة يعرفون حقوق الله، ويحصل من علوم الدنيا الانتفاع الصحيح.

ومثل هذا أيضـــا في قوله ﷻ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾(النجم:٢٩-٣٠)، فأثبت لهم العلم بالدنيا، وذمَّهم على الإعراض عن ذكر الله تعـــالى، أي إنهم لم ينتفعوا بعلم الدنيا بســـبب غفلتهم عن علوم الشريعة التي هي طريق إلى معرفة الله وذكره. فقوله هنا: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ إشـــارة إلى وجوب الارتقاء من هذه الدرجة إلى درجة الجمع بين علوم الدنيا وعلوم الشـــريعة والتأليف بينها، فتلك الغاية المرجوة والمنـــزلة السامية المحمودة.

فلا يفهـــم من هذا نفي صفة العلم عن علوم الكون والحياة، وإنما نفي منفعتها إذا لم تهتد بعلوم الشريعة، لأنها إنما تكون علوما نافعة تحت ظلال الشريعة، فإذا كانت كذلك كانت علوما نافعة حقا. وهذا المعنى نجـــده أيضا فيما ورد عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: "إن الله يبغض كل جعظريّ جواظ سخاب بالأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخـــرة"[٤]. فصفة العلم ثابتة لعلوم الدنيا في قوله هنا "عالم بأمر الدنيا"، وإنما أبغض الله هذا الصنف من الناس لجهله بأمر الآخرة. ولو اهتدى بعلوم الشـــريعة لكان عالما بأمر الآخرة. فلا ينتفع على الحقيقة بعلوم الدنيا إلا بعلوم الشـــريعة. وهذا المعنى نفسه هو الذي استنبطه ابن حبان البستي فترجم لهذا الحديث بقوله: "ذكر الزجر عـــن العلم بأمر الدنيا مع الانهماك فيها، والجهل بأمر الآخرة ومجانبة أســـبابها". وواضح من كلامه هـــذا أن الزجر إنما يقع على وجه خـــاص في علوم الدنيا، وهو حال الانصراف إليها والعناية بها في غفلة عن علم الشـــريعة. أما إذا لم تحصـــل الغفلة فذلك خير الدنيا والآخرة، فيتم الاعتداد في هذه الحالة بعلوم الدنيا، فيشرف قدرها وتعلو منـــزلة صاحبها، لأن اقترانها بعلوم الشـــريعة واهتداءها بالوحي، يجعلها طريقا إلى معرفة الله تعالى من خلال معرفة خلقه، ويوجه فوائدها نحو تحقيق مقاصد الشريعة، والتي تجتمع في جلب المصالح واتقاء المفاسد.

ومما يدل على هذا المعنى أيضا أنّ تدبر الكون والتفكر في خلق الله مأمور به في القرآن الكريم، لأنه طريق سالك إلى معرفة الله تعالى ومعرفة كماله وجلاله وجماله. ومعلوم أن علوم الكون لا تخرج في حقيقتها وجوهرها عن وصف الكون وبيان نظام الحياة الذي فطره الله تعالى عليها، لأنها تبحث في الكون الموجود، وتشتغل في العالم المنظور، وتعرّف بصفات المادة وخصائصها وعملها وقانون سيرها. ثم إنه لا يمكن الاختلاف في أن علوم الكون منضبطة، لها قانون ومنطق تبنى فيه النتائج على المقدمات.

فعلوم الكون إذن مأمور بها على هذه الصفة وعلى هذا الوجه، وهو أن تكون طريقا إلى معرفة الله تعالى، ثم عونا على تيسير المعاش. فإذا كانت كذلك فهي علوم حقا تثبت لها صفة العلم شـــرعا.

ومن شـــواهد هذا أيضا ما جاء في الحديث عن عائشة وأنس رضي الله عنهمـــا أن النبي ﷺ مرّ بقوم يلقّحـــون فقال: "لو لم تفعلوا لصلُح". قال: فخرج شيصا، فمرّ بهم فقال: "ما لنخلكم؟" قالوا: قلتَ كذا وَكذا، قال: "أنتم أعلم بأمر دنياكم" (رواه مسلم). فالرسول ﷺ هنا أثبت صفة العلم لأمور الدنيا التي تخضع للتجربة والخـــبرة. فقوله هنا: "أنتم أعلم بأمر دنياكم" يدل على أن الدنيا موضع للعلم ومجال له.

غاية العلم

يثبت من هذا كله أن معارف الدنيا، والتي تســـمى اليوم "العلوم التجريبية"، لها صفة العلم إذا اقترنت بعلوم الشـــريعة، ويصدق عليها معنى العلم بالاصطلاح الشـــرعي في القرآن الكريم والسنة النبوية. وإنما وقع التأكيد في القرآن الكريم والســـنة النبوية على علوم الشـــريعة لأن بها ينتظم أمر جميـــع أمور الحياة الدنيا ومنها "العلوم التجريبيـــة"، فيكون الأمر بالعناية بعلوم الشـــريعة أمرا بالعنايـــة بالعلوم التجريبية على الوجـــه الصحيح الذي ينتظم به أمرها ويحصل الانتفاع بها في الدين والدنيا.

والعناية بعلوم الدنيا على هذا الوجه مضمن في الأمر بالعناية بعلوم الشـــريعة. وعن هذا المعنى عبر أبو الحسن الماوردي بقوله: "اعلم أن ما به تصلح الدنيا، حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتئمة، ســـتة أشياء، في قواعدها وإن تفرعت. وهي: دين متبع، وســـلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فســـيح. فأما القاعدة الأولى وهي الديـــن المتبع، فلأنه يصرف النفوس عن شـــهواتها، ويعطف القلوب عن إرادتها، حتى يصير قاهرا للســـرائر، زاجرا للضمائر، رقيبا على النفوس في خلواتها، نصوحا لها في ملماتها. وهذه الأمور لا يوصل بغير الدين إليها ولا يصلح الناس إلا عليها، فكان الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها، وأجدى الأمور نفعا في انتظامها وسلامتها. ولذلك لم يخل الله تعـــالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف شـــرعي واعتقاد ديني ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء، ويستسلمون لأمره فلا تتصرف بهم الأهواء"[5].

فقد وقع التركيز في الســـنة النبوية على علوم القرآن والسنة النبوية لأنهما أصل ســـائر العلوم وأساسها، وعليهما تقوم وبهما تسير سويا على صراط مستقيم.

"إن الانطلاق من علم القرآن والسنة يهدف إلى بناء الإنسان إيمانيا وخلقيا وســـلوكيا، وفي طي ذلك التسليم والطاعة لقانون العلم التجريبي الحق حين ظهوره. وبغير هذا البناء لا تعمر الحياة ولا يستطيع العلم التجريبي أن يقودها. مما يعطي لهذا التأكيد على علم القرآن والسنة الصدارة في العلوم والأحقية في المعرفة، ليكون العلم التجريبي والسلوك الإنساني والنظام العمراني في البشرية في توافـــق واطراد، بعيدا عن الانفصام الذي يؤدي إلى عواقب بالغة السوء والأثر"[6].

وعلى ما تقدم فإن مفهوم "العلم" يشمل في المقام الأول علوم الشـــريعة القائمة على القرآن والسنة، ثم يشمل بالتبع والتضمن كل علوم الكون والحياة التي تهتدي بأنوار علوم القرآن والســـنة. وموضوع "العلـــم" ومجاله هو نصوص القرآن الكريم والســـنة النبوية أولا وهو أشـــرف المجالات ورأســـها، ثم العالم المخلوق بجميع أنواعه وأجزائه. وعلى هذا المعنى ســـار علماء الإسلام عبر العصور، فيثبتون لعلوم الكون صفة "العلم" في توافق وانســـجام مع علوم الشريعة، فنجد عندهم علم الطب، وعلم الفلك، وعلم الحساب وغيرها.

وخلاصة كل هـــذا أن الغاية الكبرى للعلم هو التعريف بالله تعـــالى خالق الكـــون ومدبر الكائنات. فكل مـــا يدل على الله ويعرف به فهو علم صحيح مطلوب. ولهذا فإن علوم الوحي هي رأس العلم وروحه، لأنها ترشد إلى الله وتبين طرق معرفته، ثم تأتي بعدهـــا علوم الكون لأنها تعرف بالكون المخلوق، فتكون بذلك طريقا ســـالكا إلى الله تعالى، لأنها تفصح عن قدرة الله وتكشف عن أفعاله وتصرفاته في الكون.■

(*) أستاذة باحثة في الشؤون الإسلامية / المغرب.

الهوامش

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ١٦٥/١.
(2) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٤٨/٦.
(3) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١٦٨/٦.
(4) الصحيح، لابن حبان، ٢٧٤/١.
(5) أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، ص ١١١.
(6) أسس العلم وضوابطه في السنة النبوية، للدكتور فاروق حمادة، ص ٩٩-١٠٠



الاجتهاد الإسلامي

أ.د. محمد عمارة*

الاجتهاد -كالجهاد- من جَهَدَ، وهو لغة: استفراغ الوُسْع في تحصيل أمر مُستلزِم للكلفة والمشقة. واستفراغ الوُسْع معناه: بذل تمام الطاقة، بحيث يحس المجتهد من نفسه العجز عن المزيد عليه. وفي اصطلاح الأصوليين: استفراغ الفقيه الوُسع لتحصيل ظن بحكم شرعي. فالمجتهد هو الذي تكون لديه ملكة الاقتدار على استنباط الفروع من الأصول.

والأسباب التي تُمكن المجتهد من الاجتهاد في العلوم الشرعية -وكذلك في العلوم العقلية- كثيرة، تفاوت تعدادها لدى بعض العلماء. لكن يجمعها سببان أو شرطان:

أ-معرفة الأصول كتابا وسنة.

ب-معرفة الاستنباط من الأصول بالقياس.

هذا في الشرعيات، والحلال والحرام. أما في العقليات، فالسببان هما:

أ-معرفة الأوائل العقلية.

ب-ومعرفة وجه الاستنباط منها.

أما تفصيل شروط المجتهد، كما حددها علماء الأصول فهي:

١-التمكن من اللغة العربية إلى الحد الذي تتحصل للمجتهد القدرة على إدراك أسرار البيان القرآني المعجز ومقاصد السنة النبوية الشريفة.

٢-الفهم والتدبر لآيات الأحكام في القرآن الكريم والتي تبلغ الخمسمائة آية.

٣-رسوخ القدم في السنة النبوية وعلومها رواية ودراية سنداً ومتنا، وعلى الأخص ما جاء في صحاحها ومجاميعها ومسانيدها من أحاديث الأحكام التي قدَّرها البعض بثلاثة آلاف حديث.

٤-المعرفة المحيطة بالناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق المقيد في آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية الشريفة.

٥-المعرفة بأصول الفقه واجتهادات أئمته فيه ومسائل الإجماع والقياس فيه.

٦-الحذق لروح التشريع الإسلامي ومقاصد الشريعة الإسلامية حتى تتحصل للمجتهد ملكة الجمع والمقارنة بين النصوص المتعددة -والتي قد تبدو أحياناً مختلفة أو متناقضة- في المسألة الواحدة، والخروج منها بالحكم المحقق للمقاصد وروح التشريع.

ولقد تبدو هذه الشروط عزيزة الوجود والتحقق والاجتماع في العالم الفرد، في عصر التخصصات الدقيقة والجزئية -للعلوم- الذي نعيش فيه. لكنّ تطوّر أدوات ووسائل الطباعة والتوثيق والفهرسة والتخزين للمعلومات قد يسهل أمور الاجتهاد وييسر اجتماع شروطه لعماء اليوم أكثر مما كان ذلك ميسوراً قبل هذا التطور في سبل البحث العلمي ووسائله.

دواعي الاجتهاد

ودواعي الاجتهاد في الشريعة الإسلامية التي جعلته ضرورة من ضروراتها وقانونا وسنة من قوانينها وسننها كثيرة، منها:

أ-خلود الشريعة الإسلامية لختم الرسالات برسالة محمد ﷺ، الأمر الذي يقتضي الاجتهاد المحقِّق لصلاحها لمختلف العصور. فغيبة الاجتهاد يقف بها عند تلبية احتياجات عصور دون الأخرى، الأمر الذي يهددها بالجمود الذي يعجزها عن تلبية حاجات العصور المتتالية، والتي هي بحكم سنة التطور متغيرة ومتجددة.

ب-عموم الرسالة المحمدية -ومن ثم شريعتها- للعالمين. الأمر الذي يستدعي الاجتهاد لتلبية احتياجات البيئات المختلفة والعادات المتغايرة والأعراف المتمايزة، للبلاد والأمم والأجناس المختلفة.

جـ-طروء البدع -بالزيادة والنقصان- على أحكام الشريعة، بمرور الأزمان، وخاصة في عصور الضعف والجمود. الأمر الذي يستدعي الاجتهاد لجلاء الوجه الحقيقي لأحكام الشريعة ومقاصدها.

د-تناهي نصوص الأحكام -في الكتاب والسنة- ولانهائيةُ المشكلات الحادثة للناس عبر الزمان والمكان، الأمر الذي يستدعي الاجتهاد لاستنباط الفروع الجديدة من الأصول الثابتة، لتستظل بهذه الفروع الجديدة مساحات من الوقائع والمشكلات لم تكن موجودة من قبل.

هـ-التطور، الذي هو سنة من سنن الله في خلقه، في الإنسان والحيوان والنبات والجماد والأفكار، والذي يستدعي الاجتهاد لينمو القانون الإسلامي فيواكب ثمرات التطور ويلبي حاجاته في مختلف ميادين الحياة.

أدلة مشروعية الاجتهاد

أما الأدلة على شرعية الاجتهاد من الكتاب والسنة فإنها كثيرة:

فآيات القرآن التي تحدثت عن فعل العقل والتعقل هي تسع وأربعون آية. وآياته التي تحدثت عن القلب -ومن وظائفه التفكير والتعقل- تبلغ مائة واثنين وثلاثين آية. ولقد ورد الحديث في القرآن عن "اللب" بمعنى العقل، لأنه جوهر الإنسان وحقيقته في ستة عشر موضعا. وجاء الحديث فيه عن "النُّهى" (بمعنى العقل) في آيتين. أما التفكر، فلقد جاء الحديث عنه بالقرآن في ثمانية عشر موضعاً. وجاء الحديث فيه عن "الفقه" في عشرين موضعا. وجاء حديثه عن "التدبر" في أربع آيات، وعن "الاعتبار" في سبع آيات. وعن "الحكمة" في تسع عشرة آية. الأمر الذي يجعل رصيد الاجتهاد في القرآن الكريم رصيداً ضخما وغنيا. ففيما يقرب من الثلثمائة آية يأتي الحديث الذي يحث على الاجتهاد ويزكيه.

أما السنة النبوية، فإن مأثوراتها التي تزكي الاجتهاد وتحض عليه -صراحة أو ضمنا- هي الأخرى كثيرة حتى لتستعصي على الحصر الدقيق.

فالرسول ﷺ يدعو إلى الاجتهاد في فهم آيات القرآن اجتهادا يصل بنا إلى ما وراء ظواهر النصوص: "أثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين" و"من أراد العلم فليثور القرآن" (رواه الطبراني). وإذا دعا لحبر الأمة (ابن عباس) قال: "اللهم فقهه في الدين" (رواه مسلم)، لأن "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" (متفق عليه).

وهو عندما يسأل مبعوثه وقاضيه إلى اليمن معاذ بن جبل رضي الله عنه:

- "بم تقضي؟"

فيجيبه: بكتاب الله. يعاود سؤاله:

- "فإن لم تجد في كتاب الله؟"

فيجيبه: أقضي بما قضى به رسول الله. فيعاود سؤاله:

- "فإن لم تجد فيما قضى به رسول الله؟"

فيجيبه: أجتهد برأيي.. وعند ذلك يقول الرسول ﷺ:

- "الحمد لله الذي وفق رسول رسوله" (رواه أبو داود والترمذي).

بل إنه ليشجع على الاجتهاد حتى ليحدثنا عن أن المجتهد مأجور على مطلق الاجتهاد، حتى ولو لم يصادف اجتهاده الصواب "من اجتهد برأيه فأصاب فله اجران، ومن أخطأ فله أجر واحد" (رواه البخاري).

حكم الاجتهاد ومراتبه

والاجتهاد قد يكون فرض عين، وقد يكون فرض كفاية، وقد يكون مندوبا، وذلك وفق مقام الاجتهاد والحاجة إليه والحكم الذي يستنبطه المجتهد بالاجتهاد، وتعلُّق هذا الحكم بذات المجتهد أو بالآخرين.

وميدانه ما ليس معلوما من الدين بالضرورة، مما اتفقت عليه الأمة من الشرع الجلي الذي ثبت بالنصوص قطعية الدلالة والثبوت. أما مراتب المجتهدين فإنها ثلاثة:

الأولى: رتبة المجتهد المطلق؛ وهو الذي "يستنبط" الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة.

الثانية: رتبة مجتهد المذهب؛ وهو من "يستنبط" الأحكام من "قواعد" إمام مذهبه.

الثالثة: رتبة مجتهد الفتوى؛ وهو المقتدر على "الترجيح" في "أقوال" إمام مذهبه.

والذي جرى عليه الرأي في مبحث الاجتهاد -في الحضارة الإسلامية- هو عدم خلو العصر -كل عصر- ممن ينهض بأداء فريضة الاجتهاد. وللإمام جلال الدين السيوطي كتاب جعل عنوانه: "الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض" قال في مقدمته: "إن الناس قد غلب عليهم الجهل وعمهم، وأعماهم حب العناد وأصمهم، واستعظموا دعوى الاجتهاد، وعدّوه منكرا بين العباد، و لم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات في كل عصر، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة في كل قطر".

الاجتهاد الجماعي

لكن الذي حدث للاجتهاد عبر مسيرتنا الحضارية، أن ميادين من إبداع العقل الإسلامي في الفكر الإسلامي قد أصابها الجدب، فأصيبت ثمراتها بالذبول. فمنذ الانقلاب الأموي على فلسفة الشورى ضمرت إبداعات الأمة واجتهاداتها في الفقه الدستوري والفكر السياسي الذي يحدد أطر وضوابط علاقة الحاكم بالمحكوم؛ على حين نمت وازدهرت إبداعات الفكر واجتهاداته في الميادين الأخرى.

فلما طال الأمد بالخطر الخارجي تتاريا وصليبيا، وطال الأمر بدول العسكر المماليك، التي مثلت فروسية العصر اللازمة للدفاع عن وجود الأمة والحضارة إزاء هذا الخطر الخارجي، وجلب المماليك شريعة مواطنهم الأصلية "ياسة" جنكيز خان فجعلوها قانون العسكر (أي الطبقة الحاكمة) والدواوين السلطانية (أي دوائر الدولة) تراجعت مكانة "فقه المعاملات" الإسلامي، فذبل، ثم توقف الإبداع والاجتهاد فيه، وهذا هو الذي أدى إلى ما يسميه البعض إغلاق باب الاجتهاد، حتى جاء عصرنا الحديث ولدينا ثراء وغنى في "فقه العبادات" والشعائر الدينية، يصاحبه فقر شديد في "فقه المعاملات" و"الفكر السياسي" اللازم لمواكبة الواقع الجديد والمستحدثات من الأمور.

الأمر الذي يبرز حاجتنا الماسة إلى تنشيط الاجتهاد في "فقه الواقع" السياسي والاقتصادي والاجتماعي ليتسنى لأصول شريعتنا الفروع التي تظلل وتحكم وتصبغ بالإسلام هذا الواقع الجديد.

وربما مع تعقُّد شؤون الواقع الجديد، وتشعُّب علوم الشريعة والحضارة إلى تخصصات كثيرة ودقيقة، كانت الحاجة إلى "الاجتهاد الجماعي" كالشكل الأنسب للعصر الذي نعيش فيه.■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.



الصوت والصدى

أديب إبراهيم الدباغ*

في "تركيا" اليوم صوتٌ متفرد بين الأصوات، ليس كمثله صوت؛ قوي من غير شِدّة، نافذٌ من غير حِدَّة، عالٍ من غير صخَب، هامِسٌ من غير ضعف. في كلماته جمال وجلال، وفي نبراته لهفةٌ واشتياق، وفي ثناياه ذهن يتوقد ذكاءً، وفكر يتلهّب سناءً.

إنه ذلك الصوت المضيء الآتي من قبل الظلمة اليائسة، والطّالعُ من سُويداء العَتَمَات الهالكات. أفكاره مضيئة وإن لم تَمْسَسْهَا نار، وسانحاته مغدقات بالمعاني المبتكرات. إنه يدعونا لننفض عن أنفسنا سواد الليالي الحالكات، ونغسل عن أرواحنا وهَن السنين اليائسات، ويهتف بنا لنؤمن بأننا طاقة من طاقات القدر، وجند من جنده، ابتعثنا لتغيير الإنسان وتشكيله من جديد.

لقد نفخ "فتح الله كولن" في صور القيام، فقامت الشبيبة من غفلات نومها، وفاضتْ وديان قلوبها بصدى النفير، و لم يعد أحد منهم يحس بالرغبة في العودة إلى النوم، وقيل "هلمّوا يا شباب، هنا يُصنع الإنسان من جديد وتتخلّق طاقاته، وتبعث آماله".

لقد أثبت "كولن" بالملموس ومن خلال الأعمال التي تكاد تبلغ حَدّ الإعجاز عند هؤلاء الفتيان، أنّ العمل الإبداعي لا يعرف هذا الفاصل الموهوم بين المادة والروح؛ فالمادة عنده خامة روحانية يشكلها الروحانيون كما يشاؤون، وأما الروح فهي القوة التي تعطي مَوات المادة التشكّل والحياة والإعجاز.

لقد بقي فتياننا جاثين على عتبات الأغراب ضعافا هزالا، وعندما سمعوا النداء، وبلغهم الهتاف، قاموا أبطالا خارقين يسابقون الأيام، ويتقحمون الأزمان دون خوف أو وَجَل، و لم تعد حياتهم سؤالا مؤلما لا يجدون جوابا عنه، بل وجدوا الجواب، ورفعوا النقاب، ومضوا مع طاقاتهم الدافعة يشقُّون الطريق، ويقطعون المسافات ليرمموا المتصدّعَ ويقيموا المتهدّم.

لقد وجد هؤلاء الفتية الظامئون في ينابيع الإدراك التي فجّرها "كولن" في نفوسهم ما يروي ظمأ أرواحهم، ويسقي جفاف عقولهم، بعد عقود من السنين كانت فيها أرضهم تعاني أوجاع مخاضات عسيرة ثم لا تلد في كل مرة إلاّ مسوخا فكرية غير قادرة على إيقاف نزيفهم الروحي. فمضى "كولن" يمسح جراحاتهم، ثم يشحذ قواهم الفكرية والروحية ويستنفرهم للنزول إلى ميدان

الفكر متيني البنيان لا يُخرَقون، ومنارات هدى لا يُطَالون، وذوي ثقل في موازين الرجال لا يُجارَون.

وقد أتقن "كولن" فنّ خطاب الروح الإنساني وراهن عليه، وظلّتْ آماله معقودة على صحوته مهما طال زمن غفلته؛ فنجاح الدعوات مناط باستكشاف أسراره، وعلى قدر معرفتنا به يكون نجاحنا في التعامل معه.

إن أصداء أفكاره في عقول الآلاف من الفتيان ردّ حاسم على أولئك الذين كانوا يرون أنّ مجتمعاتنا الشبابية قد تفسّخت ودبّ فيها الفساد، و لم يعد ينفع معها لا الأدواء ولا الدعوات. وقد خلُصَ الأستاذ من خلال تجاربه الدعوية إلى أنّ افتقار هؤلاء الفتيان إلى العاطفة الصادقة التي تتفهم أوجاعهم ومشاكلهم وما يعانونه من إحباطات هو الذي يحول دون إصغائهم لمخاطبيهم مهما أوتوا من بيان وقوة إقناع. وقد دفعه ذلك إلى الإنصات إليهم، ومشاركتهم آلامهم وآمالهم، والانكباب على دراسة مشاكلهم. فلمّا أحسّوا منه صدق التوجه إليهم، آثروه بالإصغاء، واختاروه معلما ومرشدا.

لقد أطلق "الأستاذ" الشبابَ من حبوسهم النفسية والفكرية، وشرّع لهم سبل تصريف طاقاتهم المتفجرة في البناء والتعمير، وتشييد سماوات فكرية وروحية يتخذونها سقوفا يستظلون بها، ويسطعون نجوما متلألئة في آفاقها، ويحاورون منها الزمن، ويصارعون أباطيله بالكلمة المضيئة، والفكرة المستنيرة، من غير أن يحتاجوا إلى فتيل عضل أو بسطة جسم.

لقد عرفوا الحقيقة وأمسكوا بها وعاشوا لها، ومضوا يبشرون بها مستلهمين روحها العظيم، وذاكرتها الماورائية الخالدة. و لم يَعُد أحد من هؤلاء الشباب يرغب بالعودة كرة أخرى إلى حبوسه الأولى، حتى إنّ فكرة العودة لأيّ منهم تبدو من المستحيلات، فيستطيع أحدنا أن يُسْلِمَ قياده إلى واحد منهم وهو آمنٌ مطمئن.

إنهم تعلموا من "الأستاذ" كيف يخلعون عن أنفسهم بأنفسهم نير أنفسهم، فإذا بهم يتسابقون إلى المعالي وكأن في أرجلهم أجنحة صقورية قوية يطيرون بها طيرانا، وفي دمائهم نشوة مغتبطة بالحياة. وإن بساطا جذلا يمضي معهم حيث يمضون، وينشرونه حيث ينتشرون، ولغبطة الحياة بهم فإنها منحتهم مفتاح قلبها ليلجوا إليها، ويفهموا عنها الومضات والإيماءات والآيات الدالات على خالق الحياة ﷻ.

إن أصداء الأفكار العميقة والواسعة قد تكون أقوى أثرا وأعظم نفاذا في النفوس من صوت الأفكار نفسها، فكل صوت وصداه يُسجّل على صفحات الهواء في الفضاء العريض. حتى إن الجبال الصمّاء نفسها كانت تهتزّ طربا متجاوبةً مع أصداء تضرعات داود عليه السلام كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾(سبأ:١٠)، وكأنها تريد أن تظهر مبلغ حدَبها على أصداء صوت داود عليه السلام الشجي. وأن هذه الأصداء ستكون في رعايتها وكنفها حتى تلقى الله تعالى بها يوم القيامة.

وإننا لنعجب كيف استطاع هؤلاء الفتية أن يصونوا قلوبهم من التلوث بلوثات العصر، ويحتفظوا بها طاهرة نقية وكأنها قلوب ملائكية لا تقرب الدنس ولا يقرب الدنس منها. وإننا لنقرأ ذلك الطهر في وجوههم الصريحة المشرقة، وابتساماتهم العامرة بالإيمان. هذه الابتسامات التي فيها الشيء الكثير من براءة الطفولة وشفافية الإخلاص.

إنهم مخلصون، ولا يستطيعون أن يكونوا غير مخلصين، لأنهم يدركون أن هذا الإخلاص هو من لوازم الإيمان الذي لا يصح إيمان امرئ منهم من دونه.

ومع هذه اللطافة التي تكاد تبلغ حد الرقّة فإنهم ينطوون على قوة روحية خزينة في نفوسهم، يبدو بعضها ويختفي معظمها. حتى إذا جدّ الجِدّ وناداهم الواجب، تواثبوا إليه وتقحموه وتنافسوه وتزاحموه حتى ينجزوه، فإذا أنجزوه اختفوا ونسب كلّ واحد منهم فضل ذلك الإنجاز لأخيه، ثم توارى عن الأنظار فلا يكاد يعرف له مكان في هذا الواجب المنجز، و لم تعد تعرف أيهم المتقدم منهم والمتأخر. فيصدق عليهم ما كان يصدق على الرعيل الأول من المسلمين: "يقلّون عند الطمع ويزيدون عند الفزع".

وصدى الصوت الذي كان مجرّد موجات يحملها الهواء إلى الآذان، فإنها سرعان ما تتشكل عقلا بشريا يمكن أن نقرأه ونحاوره ونأخذ عنه أو نردّ عليه. فإذا كان منبع هذا الصدى فكرا جوهريا أصيلا استطاع أن يحرك الوجدان على بعد آلاف الأميال، لأنه ذاتي المصدر، نقي المعدن غير مشوب بما في واقع الحياة من شوائب طامسة للأصالة والذاتية. وبذلك وحده يغنى الفكر ويخصب الروح ويرهف الحِسُّ والشعور، ويصبح المؤمن مؤهلا لاستقبال المدركات الروحية والعقلية العالية. وهذا هو ما يصبو إليه صاحب كل صوت فكري بين الأصوات...!■

(*) كاتب وأديب عراقي.



تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار

العالم والأيدي

بأيدي الظلم دنيانا سقطتْ
وبالغربة تلفعتْ،
وبالحزن تجلببتْ
ههنا أنيناً تسمع،
وهناك بكاءً ترى
فماذا بعد ذاك؟!
وأيٌّ مخفي من الأقدار،
ستتكشف عنه الأيام؟!

* * *

